القسم الرابع

السودان

الفصل الأول

الجغرافية والتاريخ

١

الجغرافية[1]

السودان جنوبى مصر فى القارة الإفريقية ، ويمتد على جانبى نهر النيل من وادى حلفا عند خط عرض ٢٢° شمالا إلى خط عرض ٤٠-٣° إلى الجنوب ، وهى مسافة تقدر بحوالى ألفى ميل طولا وتبلغ المسافة من الشرق إلى الغرب نحو ألف ميل عرضا . وتبلغ مساحة السودان حوالى مليون ميل مربع ، وهو ثلاثة أقسام : السودان الشمالى الواقع بين وادى حلفا والخرطوم ، والسودان الأوسط الواقع بين الخرطوم وحوضى نهر السوباط وبحر الغزال ، والسودان الجنوبى الواقع بين هذين الحوضين والحوض الجنوبى لنهر النيل . وليس هناك حدود طبيعية بين السودان والكنغو ولا بينه وبين الحبشة ، واتفق على خطوط فاصلة بينه وبين القطرين جميعا .

والصحراء تطل على جانبى النيل فى السودان الشمالى وتتخللها تلال صخرية كثيرة ، أما فى السودان الأوسط جنوبى الخرطوم فتقل التلال ، ويصبح السطح أشبه بسهل ، ويمتد السهل شرقا حتى مرتفعات الحبشة وجنوبا شاملا السودان الجنوبى حتى هضبة البحيرات الاستوائية . ويرفد النيل من الحبشة نهران : نهر النيل الأزرق ويصب فيه مياهه بالقرب من الخرطوم ، ونهر عطبرة ويصب فيه شمالى مدينة الدامر حاملا ذخيرة كبيرة من الطمى . وأخصب أجزاء السودان أوسطه أو بعبارة أخرى السودان الأوسط ، ففى شرقيه حتى تلال الحبشة سهل طمىّ خصب يحتضنه النيل الأزرق من جهة والنيل الأبيض من جهة ثانية ، ويسمى أرض الجزيرة ، وتبلغ مساحته نحو مليون فدان وتجود فيه الحبوب والقطن . وغربى السودان الأوسط سهول رملية تمتد حتى مرتفعات كردفان بل حتى جبل مرة فى دارفور وما وراءه وأيضا حتى جبال النوبة وخط تقسيم المياه بين حوض النيل وحوض بحيرة تشاد . وهذا الغرب كله مراع واسعة يتجول فيه أهله صيفا وراء قطعانهم من الأنعام : الإبل والأغنام ويزرعون فى بعض البقاع الذرة والدخن ، ويعنى سكان جبال النوبة بالزراعة وخاصة زراعة القطن .

وفى الشرق الاقليم بين حوضى النيل الأزرق وعطبرة يسمى سهل البطانة وتكثر فيه التلال

---

(١) انظر فى جغرافية السودان كتاب السودان ووادى النيل للدكتور محمد عوض محمد والجغرافية البشرية للدكتور إبراهيم رزقانة ودائرة المعارف الإسلامية .

كلما اتجهنا شرقا حتى مدينة كسلا ، وعندها يظهر خط الجبال الذى يفصل بين نهاية سهل البطانة وبداية جبال إريتريا . وفى هذا السهل مراع واسعة ومناطق زراعية على شواطىء النيل ونهر عطبرة ويزرعون الحبوب والقطن .

وعلى شواطىء النيل فى السودان الشمالى تزرع الذرة ، وشرقى السودان الشمالى سهول تمتد شرقا حتى البحر الأحمر وشمالا حتى الصحراء الشرقية فى مصر ، وتسكنه قبائل مختلفة أهمها البجَّة وتكثر فيه المراعى ويعيش سكانه على الرحلة وراء أنعامهم من مرعى إلى مرعى . ويختلف فيه زمن نزول المطر ففى الصيف يسْقط فى الداخل ، ويتزايد من الشمال إلى الجنوب ، وفى الشتاء يسقط على الساحل والتلال الشرقية . وأهل البجة الشماليون يسمون البشارين ، وأكثر عملهم فى مناجم الذهب ، وأهل العشائر القريبة من ميناء بورسودان على البحر الأحمر يعمل كثيرون منهم فيها ، والعشائر النازلة بين كسلا وسنكات فى الطريق إلى بورسودان يعملون فى دلتا خور القاش حيث يزرعون القطن والذرة ، وأبناء عمومتهم النازلون على حدود إريتريا يزرعون القطن فى دلتا خور بركة عند طوكر .

والسودان الجنوبى الممتد جنوبى نهر السوباط وبحر الغزال تغطيه الحشائش والأدغال شمالا ، ويتحول فى الجنوب إلى مستنقعات تُغَطِّيها الغابات والبردى وحشائش مختلفة . وتؤثر هذه النباتات تأثيرا كبيرا على مياه النيل المنحدرة من بحيرة البرت إلى بحر الغزال إذ تفقد نحو نصفها بسبب سدود النباتات التى تعترض مسيرتها ، كما تعترض مسيرة بحر العرب المنحدرة مياهه شرقا إلى بحر الغزال . وتجرى فى هذه المنطقة روافد عديدة للنيل وترتفع بها بعض أجزاء يبنى عليها سكانها قراهم ويرعون أنعامهم ، ويزرعون بعض بقاعهم ، مع ملاحظة أن المستنقعات تكثر كثرة مفرطة فى أقصى الجنوب . وبجانب الزراعة أحيانا والمراعى يصيدون من المياه الأسماك ومن الغابات المجاورة بعض الحيوانات وخاصة فى الأنحاء الغربية .

والمناخ فى السودان الشمالى شديد الحرارة صيفا . وهى شدة تظل من شهر أبريل إلى شهر أكتوبر ، وتبلغ فى أكثر الأحيان ٤٠ °م ويزيد الجوُّ الحار قسوة وشدة ما تحمله رياح السودان المحلية المسماة بالهبوب من الرمال . والسودان الأوسط والجنوبى شديدا الحرارة أيضا إلا أن حرارتهما لا تبلغ فى الشدة مبلغ حرارة الإقليم الشمالى صيفا ، وأحرُّ شهور السودان الجنوبى شهور يناير وفبراير ، ثم يأخذ مطر الصيف فى النزول فيقلل درجة الحرارة تدريجا . ودرجة الحرارة فى دارفور أقل منها فى كردفان والخرطوم لأنها أكثر منهما ارتفاعا فوق مستوى سطح البحر . والمطر فى السودان الجنوبى غزير ، ويبدأ فصله هناك من شهر مارس ، ويأخذ فى الازدياد بالأشهر التالية ويبلغ الذروة فى شهرى يولية وأغسطس ، ثم يأخذ فى التناقص حتى شهر نوفمبر ، وأشهر ديسمبر ويناير وفبراير هناك أشهر الجفاف .

٢

التاريخ

(أ) السودان فى العصور[١] القديمة

يرتبط السودان فى تاريخه السحيق بمصر منذ عهد الأسرات الأولى لحضارة قدماء المصريين بعامل حِفاظ تلك الأسرات على الأمن فى جنوبى مصر وعلى طريق التجارة . وفى أخبار الأسرة الرابعة أن سنفروقام بحملة فى الجنوب ، لعلها كانت حملة تأديبية ، وتتجدد الصلات فى عهد الدولة الوسطى بغرض السيطرة على أرض النوبة فى الجنوب وأخذت هذه الصلات تتسع فى عهد الدولة الحديثة إذ مدت سيطرتها إلى الشلال الرابع . وسميت الأراضى الممتدة إلى ذلك الشلال – منذ ذلك الحين – باسم أراضى النوبة وكانت قسمين شماليا وجنوبيا ومُصِّرت تماما فى عهد تلك الدولة ، وسكن النوبة الجنوبية كوشيون طُبعوا بطوابع الحضارة المصرية كما تدل آثارهم المكتشفة فى أراضيهم ، وكان الحاكم هناك يعد نائبا لملك مصر . ويدور الزمن دورات ويدخل الليبيون مصر ويطردون منها ، ويتسمى حكامهم باسم الملوك . وتلى ذلك حقبة غامضة لا نكاد نعرف عنها شيئا ، وتكونت حينئذ ثلاث دول نوبية : الأولى فى الشمال وعاصمتها نوس وتسمى نوباديا بعد الشلال الأول والثانية فى الوسط بإقليم دنقلة وتسمى مقرة . والثالثة جنوبى الخرطوم مباشرة وعاصمتها سوبا وتسمى عَلْوة .

ولما اضطهدت روما المسيحية المسيحيين فى مصر فرَّ كثيرون من معتنقى المسيحية إلى نوباديا دولة النوبة الشمالية ، وهناك أخذوا يدعون لدينهم المسيحى واعتنقه بعض النوبيين ، ولما أصبحت المسيحية فى روما دين الدولة الرسمى فى عهد قسطنطين سنة ٣١٢ للميلاد نشطت فى نوباديا البعثات التبشيرية ، وممن اشتهروا بهذا النشاط التبشيرى تيودور أسقف أسوان وفيلة ونزل نوبادبا واختلط بالزعماء النوبيين فيها واعتنق كثير منهم الدين المسيحى كما اعتنقه كثير من أهل نوباديا .

واتسعت حركة التبشير للدين المسيحى فى عهد الإمبراطور جوستنيان (٥١٧ – ٥٦٥ م) وكانت الكنيسة المصرية تنادى بالطبيعة الواحدة للمسيح ضد القائلين من كنيسة روما والقسطنطينية بأن للمسيح طبيعتين . وحاول جوستنيان أن يرسل بعثة إلى نوباديا للدعوة إلى عقيدته ، ووصلت إلى جزيرة فيلة مع أسقفها تيودور ، فجهزها ورافقها إلى نوباديا للدعوة إلى عقيدته وسارعت الكنيسة القبطية بإرسال بعثة للدعوة إلى عقيدتها برياسة جوليان ، ووصلت

---

(١) انظر فى تاريخ السودان بالعصور القديمة كتاب السودان عبر القرون للدكتور مكى شبيكة (نشر وتوزيع دار الثقافة ببيروت) وانظر تاريخ السودان القديم والحديث لنعوم شقير والسودان فى دائرة المعارف الإسلامية .

البعثة إلى جزيرة فيلة وجهزها ورافقها إلى نوباديا ونجحت البعثة فى مهمتها وأخفقت بعثة الإميراطور جوستنيان ، وتوفى جوليان فعيَّن مكانه أسقفا لبلاد النوبة لونجنيوس سنة ٥٦٩ للميلاد ، والتفوا حوله ، ودعاه ملك علوة فى الجنوب ، فذهب إليها وأصبحت مسيحية يعقوبية تدين بعقيدة مصر فى طبيعة المسيح الواحدة . وأخذت دولة مقرة تدخل بدورها فى المسيحية ، ويقال إنها اعتنقت أولا فكرة الطبيعتين فى المسيح ثم تركتها إلى فكرة الطبيعة الواحدة مثل نوباديا وعلوة ، ونظن أنها تأخرت فى التنصر بعد نوباديا وعلوة وأنها أخذت بعد ذلك فى التنصر تدريجا على مذهبهما اليعقوبى ، وأنها لم تبدأ تنصرها على مبدأ الطبيعتين كما يقال . ويبدو أن مملكة نوباديا ذابت فى مملكة المقرة ولم يعد هناك سوى مملكتين : مملكة مقرة ومملكة علوة ، وذلك إما قبيل الإسلام أو بعده بقليل .

(ب) السودان[1] فى العصور الإسلامية

ذكرنا فى حديثنا عن فتح العرب لدول المغرب الأقصى أنهم لم يكونوا غزاة فاتحين طلبا لمغانم مادية إنما كانوا دعاة للإسلام مجاهدين ، ونرى عبد الله بن سعد بن أبى سرح والى الخليفة عثمان على مصر بعد أن يتم له فتح ليبيا وتونس يوجه حملة إلى أرض النوبة سنة ٣١ هـ/٦٥١ م تتوغل حتى دنقلة عاصمة دولة المقرة واضطرت القائمين عليها إلى عقد معاهدة جاء فيها أن على أهل مقرة حفظ المسجد الذى بناه المسلمون بدنقلة وخدمته وإسراجه وأن لا يتعرضوا لمسلم يصلى فيه ، ويؤدوا لمصر سنويا ثلاثمائة وستين من شباب رقيقهم ذُكْرانا وإناثا ، وتعهدت مصر بإمدادهم سنويا بكميات من الحبوب والملابس . وظلت علاقات الدول الإسلامية فى مصر بمملكة مقرة النوبية قائمة على أساس هذه المعاهدة نحو ستة قرون .

وكانت قبائل البجَّة السودانية تنزل فى الصعيد بالصحراء شرقى أسوان إلى دهلك (مصوع) وقامت بغارات على أسوان فى عهد المأمون العباسى فأرسل إليهم حملة بقيادة عبد الله بن الجهم سنة ٢١٧ هـ/٨٤١ م وهزمهم وأملى عليهم معاهدة قبلوها ، فيها أن يؤدى ملك البجَّة أو أميرهم خراجا سنويا : مائة من الإبل أو ثلاثمائة دينار وأن يحترم البجة الإسلام ولا يقتلوا مسلما . وأهم من ذلك « أن عليهم أن لا يهدموا شيئا من المساجد التى بناها المسلمون فى سائر بلادهم طولا وعرضا » مما يدل على أنه كان قد نزل بديارهم عرب مسلمون بنوا هذه المساجد ، وكانت قد نزلت بينهم –قبل هذا التاريخ فيما يبدو– قبائل أو بعبارة أدق جماعات

(١) انظر فى هذا الموضوع خطط المقريزى فى مواضع متعددة وكذلك مروج الذهب للمسعودى وتاريخ ابن خلدون والسودان عبر القرون للدكتور مكى شبيكة ص ٢٥ وما بعدها وكتاب دراسات سودانية للدكتور عبد المجيد عابدين (طبع جامعة الخرطوم) والإسلام والنوبة للدكتور مصطفى محمد مسعد وكتاب العربية فى السودان للشيخ عبد الله عبد الرحمن ودائرة المعارف الإسلامية .

من قبيلتى بَلِىّ وجُهَيْنة للرعى وللتجارة ولاستخراج الذهب فى منطقة العلاقى ، وعبرت البحر الأحمر جماعات من هوازن ونزلت فى إقليم البجة ثم رحلت إلى منطقة كسلا داخل السودان . ونجد البجة فى عهد المتوكل تعود إلى العصيان وتحاول الاستيلاء على مناجم الذهب فى العلاقى من أيدى العرب ، ويرسل إليهم المتوكل جيشا سنة ٢٤٠ هـ/ ٨٥٤ م بقيادة محمد بن عبد الله القمى ويتغلب عليهم ، ويطلب ملكهم الصلح على أن لا يتعرض للعرب العاملين فى معدن الذهب ويدفع الخراج المفروض سنويا . ويزور بغداد وتبهره حضارتها .

وعندما استولى أحمد بن طولون على زمام الحكم بمصر سنة ٢٥٥ هـ/ ٨٦٨ م أرسل إلى بلاد البجة والنوبة حملة بقيادة أبى عبد الرحمن عبد الله بن عبد الحميد العمرى واشترك فيها كثير من قبيلتى ربيعة وجهينة ، ونزل كثير من جنوده فى النوبة وأرض البجة . ويذكر المسعودى الذى زار مصر سنة ٣٢٨ هـ/٩٤٠ م أن ربيعة اختلطت بالبجة فى أرض المناجم وأصبحوا أسرة أو قبيلة واحدة . ويذكر المقريزى أن ابن طولون جنَّد من النوبيين أربعين ألفا ألحقهم بجيشه ، ولابد أنهم جميعا أسلموا أو لعل كثيرين منهم كانوا مسلمين قبل استخدامه لهم .

وبدون ريب هيَّأ نزول القبائل العربية الكثيرة فى البجة والنوبة لاعتناق كثيرين منهما الإسلام ، ومع ذلك ظلت الكثرة فى النوبة مسيحية . ويزور بلاد النوبة فى أوائل عهد الفاطميين ابن سليم الأسوانى ، ويروى المقريزى عنه أن المسلمين هناك معزَّزون وفى حالة استقرار وأنَّ كثيرين من النوبيين اعتنقوا الإسلام مع تمسكهم بلغاتهم وجهلهم للعربية . ويذكر ابن سليم أن المسلمين تغلغلوا فى الأراضى السودانية حتى علوة جنوبى الخرطوم ، واستطاعوا فى القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى أن يبنوا لهم مسجدا فى سوبا عاصمة علوة . وكانت أم الخليفة المستنصر الفاطمى فى القرن الحادى عشر الهجرى سودانية وبلغ المجندون من النوبة فى الجيش الفاطمى – بتشجيع منها – خمسين ألفا . وأصبح للعرب من بنى ربيعة – فى العهد الفاطمى – مساكن على وادى العلاقى الممتد من أسوان إلى عيذاب على البحر الأحمر وما به من مناجم الذهب ، وفى سنة ٤٧٠ هـ/١٠٧٧ م أعلن شيخهم دخوله فى طاعة الفاطميين فلقَّبه الخليفة الفاطمى المستنصر بلقب كنز الدولة وعُرِفَ قومه بالكنوز ، ولما استولى الأيوبيون على صولجان الحكم فى مصر من أيدى الفاطميين انسحب عرب الكنوز من حدود أسوان إلى بلاد النوبة . وكان ثغر عيذاب قد ازدهر منذ العصر الفاطمى بسبب احتلال حملة الصَّليب لفلسطين وقيام مملكة بيت المقدس وتحوُّل الطريق الرئيسى لحجاج مصر والبلاد المغربية إليه .

وفى سنة ٦٧٠ هـ/١٢٧٢ م أغار النوبيون على ميناء عيذاب ونهبوا متاجره وقتلوا القاضى والوالى عليه من قبل مصر لعهد الظاهر بيبرس ، وأغاروا على أسوان ونهبوا أسواقها ، وأرسل بيبرس فى السنة التالية حملة إلى النوبة يقودها والى قوص ، ووصل إلى دنقلة وملك النوبة داود يفر أمامه . وجاء إلى القاهرة ابن أخته شكنده متظلما منه ، وانتهز الفرصة بيبرس ، فجهز له

جيشا مع بعض قواده ، ومضى الجيش حتى دنقلة ، ولقى داود وجماعته وهرب ، وتوج شكنده (إسكندر) ملكا على مقرة بنفوذ وقوة الجيش المصرى المملوكى مع إعلان أنه نائب للسلطان وعليه أن يرسل إليه نصف ما يجمعه من الضرائب والجزية على الشباب من غير المسلمين وكانت فى واقعها ضريبة دفاع ، وبذلك عُدَّ أهل مقرة المسيحيين أهل ذمة . وتوفى شكنده سنة ٦٧٥ هـ/١٢٧٧ م وتولى بعده أمير من البيت المالك دون رجوع إلى السلطان قلاوون الذى خلف الظاهر بيبرس فأرسل إلى بلاد النوبة حملة قضت على الملك الجديد ، ونصبت سمامون ملكا على مقرة ونائبا لقلاوون بنفس شروط شكندة السالفة غير أن سمامون لم يلبث أن أظهر عدم إخلاصه وولائه لقلاوون ، فأرسل إليه حملة تأديبية بقيادة أيدمر والى قوص ، وهُزم سمامون وفر إلى الجنوب وأقيم مكانه ابن أخته ورأى قلاوون أن يبقى معه المملوك أيدمر .

وبعد عودة الجيش المصرى المملوكى اضطر سمامون الملك الجديد نائبَ قلاوون وأيدمرَ إلى العودة إلى القاهرة فجهز قلاوون حملة كبيرة لمنازلة سمامون سنة ٦٨٧ هـ/١٢٨٩ م ووصل الجيش دنقلة ففرَّ سمامون أمامه متوغلا فى الجنوب ، وكان الملك الجديد توفى فى الطريق ، فنُصِّب ابن أخته بدنقلة ملكا على مقرة ، وبقيت هناك فرقة من الجيش المصرى مع أمير مملوكى . وعاد سمامون ثانية إلى دنقلة ، وقبض على الأمير المملوكى وأرسله ورجاله إلى القاهرة وقتل الملك الجديد ، وأرسل إلى قلاوون متعهدا له بأداء كل الالتزامات ، وقَبِلَ قلاوون منه ذلك وتوفى وخلفه ابنه خليل فامتنع سمامون عن أداء الجزية والضرائب ، وجهز له السلطان خليل حملة فرَّ أمامها من دنقلة ، ونُصِّب مكانه ملك جديد ، وكان الأمير عبد الله برشمبو لجأ إلى القاهرة واعتنق الإسلام ودخل فى ولاء محمد الناصر بن قلاوون ، وكان من الأسرة النوبية المالكة فرأى الناصر تعيينه نائبا له فى دنقلة وملكا مسلما عليها لأول مرة سنة ٧١٦ هـ/١٣١٦ م وأرسل معه حملة لتنفيذ ذلك ، وبذلك استولى على صولجان الحكم فى مقرة المسيحية أول ملك مسلم . ولم يلبث أن نازعه الملك شيخ ربيعة الملقب بكنز الدولة ، واستطاع القضاء عليه ، ونصَّب شيخ ربيعة نفسه ملكا على مقرة ، ودخلت معه إلى أرض النوبة قبائل عربية كثيرة عملت على نشر الإسلام فيها بحيث يأخذ المسيحيون هناك فى التضاؤل ، ولا يبقى منهم فى نهاية القرن التاسع الهجرى/الخامس عشر الميلادى إلا عدد قليل جدا . وتلك حسنة واضحة لاقتحام القبائل العربية لأرض النوبة ، وهذه الحسنة رافقها توزيع أراضى النوبة بين القبائل العربية وقيام إمارات كثيرة صغرى فيها مما قضى نهائيا على مملكة المقرة .

وكانت الحدود الشمالية لمملكة علوة الواقعة جنوبى مملكة مقرة تسمى الأبواب وكان يقوم عليها حاكم يسمى ملك الأبواب ، وخلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد كان يرسل لسلاطين المماليك بولائه ، وحين كان يعصى ملك مقرة هؤلاء السلاطين ويَفرُّ إلى الأبواب كان كثيرا ما يقبض عليه ويرسل به إليهم . ومنذ قامت فى دنقلة دولة إسلامية سنة ٧١٦ هـ/١٣١٦ م

أخذت تضعف صلات مملكة علوة بالكنيسة اليعقوبية فى الإسكندرية ، إذ قُطع الاتصال بينهما فلم يعد يأتيهم من الإسكندرية أساقفة ، وأهملت الطقوس الدينية وهُجرت الكنائس . ورافق ذلك انتشار القبائل العربية من مفرة إلى أراضى علوة وسهولها وتغلبهم عدديا على سكانها وامتزاجهم بهم ، كل ذلك أسرع بأهل علوة إلى اعتناق الإسلام : المسيحى منهم ومن كان لا يزال على دينه الوثنى .

ولم أتحدث عن الإسلام فى غربى السودان حتى الآن ، ومرَّ بنا فى حديثنا عن موريتانيا مدى نشر دولة المرابطين بقيادة أبى بكر للإسلام فى إفريقيا المدارية وتغلغله به إلى حوض النيجر وبلاد البرنو والكانم ، وكان ملوك الكانم من الطوارق الملثمين المسلمين وكانوا تجارا من قديم واستطاعوا أن يبسطوا سلطان دولتهم الإسلامية من بحيرة تشاد إلى غربى السودان وأرض النوبة ، وكان لتجارهم عمل عظيم فى نشر الدعوة الإسلامية غربى السودان ، وأهم من ذلك الكتلة الضخمة من قبيلة زوارة البربرية المسلمة التى كانت تنزل فى إقليم فزان ، إذ هاجرت إلى إقليمى واداى ودارفور غربى الخرطوم وهاجرت معها كتلة من عرب الشوا أو الشاوية أى رعاة الشاة ومنهم فى غربى السودان السلامات وخزام والجعادنة والمحاميد والدكاكير ، وهاجر بعدهم من فزان أولاد سليمان حين استولى الأتراك العثمانيون على ليبيا وكوَّن هؤلاء العرب ومن صحبهم من البربر مملكة إسلامية مبكرة فى إقليمى دارفور وواداى بين سنتى ٤٧٨ هـ/١٠٨٥ م و ٤٩١ هـ/١٠٩٧ م ومن سلاطين تلك المملكة سليمان وقد شملت سلطنته الكانم بجانب واداى وشطرا كبيرا من دارفور ، وورث عنه هذه السلطنة ابنه دونامة (٦٠٧ هـ/١٢١٠ م – ٦٢١ هـ/١٢٢٤ م) . وهذا بالإضافة إلى ما كان يمر بالسودان الغربى من حجاج إفريقيا المدارية . وكل ذلك عجل بانتشار الإسلام فيه .

وواضح من كل ما سبق أن الإسلام انتشر فى السودان تدريجا ، ويبدو أن انتشاره فى غربى السودان كان أسرع من انتشاره فى شرقيه وفى حوض نهر النيل السودانى نفسه ، ولم ينتشر – كما رأينا – بالسيف ، إنما انتشر بالموعظة والكلمة الطيبة .

٣

(جـ) دولة الفونج[1]

هى أول دولة إسلامية ذات نظم سياسية وإدارية تظهر فى السودان الأوسط قاعدتها

(١) انظر فى دولة الفونج مخطوطة كاتب الشونة فى تاريخ السلطنة السنارية والإدارة المصرية وكتاب السودان عبر القرون للدكتور مكى شبيكة وانظر تاريخ السودان القديم والحديث لنعوم شقير وكتاب قبائل من السودان الأوسط والسودان الغربى للدكتور عبد المجيد عابدين : فصل سقوط الممالك النوبية وقيام الفونج .

سنار على النيل الأزرق ، واختلفت الآراء فى أصل الفونج ، فقيل إنهم من إقليم البرنو دخلوا السودان من غربيه فى القرن الخامس عشر الميلادى ، وقيل هم من الشلوك القاطنين فى جزر النيل الأبيض ، وقيل هم من أعالى النيل الأزرق من إقليم فازوغلى ، وكانوا هم ينسبون أنفسهم إلى العرب ، ويقولون إنهم من نسل بعض بنى أمية الذين فروا من الشام أثناء مذابح العباسيين لأبناء أسرتهم فى أول استيلائهم على الحكم ، وكأنهم تغلغلوا فى الفرار حتى وصلوا إلى منطقة سنار على النيل الأزرق . وكانت العربية لغة دولتهم الرسمية ، وكانوا يكتبون بها وثائقهم وبذلك كانوا دولة عربية إسلامية ، وأول قيام تلك الدولة يؤرخ له بسنة ٩١٠ هـ/١٥٠٤ م وكان يرأسها ملك يسمى « عمارة دونقس » وكانت مملكة علوة فى سوبا قد تضعضعت ، فتحالف عمارة دونقس مع عبد الله جمّاع شيخ عرب القواسمة من جهينة وشيخ قبائل العبدلاّب ، وكان يسود المنطقة من التقاء النيلين الأبيض والأزرق مع الامتداد شمالا ، والتقى الحليفان مع قوات مملكة علوة وانتصرا عليها انتصارًا حاسما ، وفرت فلولها إلى كردفان والصحارى وذابوا فىْ سكان البلاد من المسلمين . وانتهت بذلك مملكة علوة واتخذ دونقس مدينة سنار عاصمة له ، وأصبح عبد الله جماع نائبا له فى الجزء الشمالى من الدولة . وحين استولى العثمانيون على مصر مدّوا حدودهم المصرية إلى مدينتى سواكن ومصوع على البحر الأحمر سنة ٩٢٧ هـ/١٥٢٠ م وأقاموا فيهما حاميتين . واستطاع عمارة دونقس أن يقنع العثمانيين بأنه ملك مسلم وسكان بلاده عرب مسلمون ولا مبرّر لأن يخشاهم العثمانيون .

ويخلف عمارة دونقس فى دولة الفونج ثلاثة ملوك لا يذكر لأحدهم عمل مهم ويخلفهم الملك دكين ودنايل سنة ٩٧٦ هـ/١٥٦٩ م وفيه يقول كاتب الشونة : « هو من أفخر ملوك الفونج ، رتب الدواوين أحسن ترتيب وجعل لها قوانين مضبوطة لا يتعداها أحد ، وجعل لكل جهة من جهات مملكته رئيسا (حاكما) معلوما وقنّن لمن عادته الجلوس بحضرته رتبا : الأعلى فالأعلى فى جلوسهم أمامه ، ومازال يُعْنَى بتمهيد دولته إلى أن توفاه الله تعالى سنة ٩٨٥ هـ . ويتعاقب بعده ملوك لا أهمية لهم ويخلفهم عدلان وداى سنة ١٠١٩ هـ/١٦١١ م ويذكر كاتب الشونة أنه حدثت فى عهده نهضة تعليمية وكان للشيخ عجيب رئيس عرب القواسمة والعبدلاب دور مهم فى تلك النهضة . ويبدو أنه ثار على عدلان وداى ، ونشبت معركة بين جيشه وجيش الفونج مات فيها وانهزم جيشه وفرت أسرته من عاصمته « قرّى » إلى دنقله ، وتوسط الشيخ الصالح إدريس ود الأرباب عند عدلان وداى فأقام العجيل أكبر أبناء الشيخ عجيب مكان أبيه شيخا أو أميرا على « قرّى » وعادت إليها أسرته .

وفى نفس السنة صمم الفونج على خلع ملكهم عدلان وولوا مكانه الملك بادى سيد القوم

وخلفه الملك رياط وفى عهده حدثت حرب مع الحبشة سنة ١٠٢٧ هـ/١٧١٨ م اكتفت فيها الحبشة بما استولت عليه من بعض الغنائم ، وولى بعده ابنه بادى أبو دقن سنة ١٠٥٤ هـ/١٧٤٥ م ويقول عنه كاتب الشونة : « هو من ذوى الشجاعة والكرم والهمم العالية ، وقد غزا النيل الأبيض وفتك بسكانه المعروفين بالشلوك وغزا جبال تقلى غربى النيل الأبيض بنحو مرحلتين ، وصالح ملكها على جزية سنوية جعلته تابعا لمملكة الفونج . وبنى بعاصمته سنار جامعا وقصرا لدواوين الحكومة ، وكان مكرما لأهل العلم ، وكان يرسل بهدايا إلى علماء الأزهر ونظمت فيه عدة مدائح وخاصة من الشيخ عمر المغربى الأزهرى وفيه يقول من قصيدة طويلة :

هو الملك المنصورُ بادى الذى له مدائحُ قد جلَّتْ عن العَدِّ والحَصْرِ

ودام حكمه نحو خمس وثلاثين سنة ، وخلفه ابن أخيه أونسة ود ناصر ، وفى عهده حدثت مجاعة ، وتم لقبائل الشايقية التى كانت تنزل فى شمالى السودان بمنطقة حلفا استقلالها عن العبدلاَّب وبالتالى عن سنار ، وكانوا أهل بسالة وشجاعة ، وكانت تقدمهم فى الحرب امرأة فاقت فى الفروسية وفنون الحرب نظراءها من الرجال وكانت تسمى عديلة ، وهى التى حرضت ابنها عثمان على خلع طاعة ودعجيب أمير العبدلاَّب ، ونشبت بينهما الحرب وانتصر عثمان ومنح ودعجيب الشايقية استقلالها . ونشطت فرنسا فى إرسال بعثات تبشيرية إلى الحبشة تريد أن تخرجها من مذهبها اليعقوبى القبطى فى المسيحية إلى مذهبها الكاثوليكى وباءت جميعا بالإخفاق الذريع لا فى الحبشة وحدها بل أيضا بين مسيحيىّ سنار . وتتطور الظروف فى دولة الفونج ، ويستولى على صولجان الملك فيها بادى أبو شلوخ سنة ١١٣٧ هـ/١٧٢٤ م وتعود الحبشة إلى الشغب على حدود مملكة سنار ، وفى سنة ١١٥٧ هـ/١٧٤٤ م سار ياسوس إمبراطور الحبَشة على رأس جيش متجها نحو مملكة سنار ، وأمر بحرق القرى السودانية وقتل الناس وأخذ إبلهم وأنعامهم ، وعسكر قسم كبير من الجيش الحبشى أمام سنار ولقيه جيشها وهزمه ، وكان الإمبراطور معسكرا مع بقية الجيش بعيدًا فلما بلغته الهزيمة آثر السلامة وعاد بجيشه إلى بلاده . ويقول كاتب الشونة فى حديثه عن هذه الحرب ونهايتها : « فرح الملك بادى وأهل سنار ووفُوا بنذورهم وعملوا الموالد وذبحوا الذبائح وأقاموا ولائم ونشروا الحرير وزيَّنوا المسجد والسوق سبعة أيام وسمع سلطان الروم (الخليفة العثمانى) بذلك ففرح بنصرة الإسلام والدين » . ولم يحاول الأحباش بعد ذلك غزو السودان ودولة الفونج . وأخذت سياسة الملك بادى تسوء سوءًا شديدًا وغيَّر كثيرا من القوانين واستعان بأهل النوبة مفضلا لهم فى الوظائف العليا على الفونج ، وغضب الشعب غضبًا شديدًا ، غير أنه انتظر نتيجة حملة كردفان سنة ١١٦٠ هـ/١٧٤٧ م ونجحت الحملة وضمت كردفان إلى دولة الفونج ، وقرر الشعب وقادة الجيش خلع بادى وتولية ابنه ناصر ملكا بعده .

وأصبح ملوك الفونج - منذ هذا التاريخ - ألعوبة فى أيدى الوزراء من الهمج ، وكانوا جماعة أو قبيلا واضحا فى سنار : وكان منهم الوزير الأول لبادى أبى شلوخ ثم لابنه ناصر وهو الشيخ محمد أبو لكيلك ، أما جماعته وهم الهمج فيقال إنهم من الجعليين الذين كانوا ينزلون شمالى قبائل العبدلاب ، ويقال بل هم من أهل النوبة الذين أسكنهم الملك بادى أبو دقن فى قرى حول سنار وجعل منهم جنده وحرسه الخاص . والأصل الذى انحدر منه الشيخ محمد أبو لكيلك يرجع إلى جعلى ، تزوَّج من نساء الأبواب . وقد مكنته مجموعة أخواله الأبواب من الاحتفاظ بإدارة الحكم وتدبيره . وعُزل الملك ناصر وتولى أخوه إسماعيل ، وتوفى الشيخ محمد أبو لكيلك وتولى المشيخة بادى ود رجب ، وبدأ التنافس سريعا فى جماعة الهمج ، إذ أخذ غير واحد يستعين بمجموعته أو عشيرته ليستولى على الحكم ، وكثرت الانقسامات والحروب الأهلية فى الدولة إلى أن دخلت جيوش محمد على السودان سنة ١٢٣٦ هـ/١٨٢٠ م بقيادة ابنه إسماعيل كامل .

٤

محمد على والسودان - عهد إسماعيل

(أ) محمد على[1] والسودان

تَرْجع بعض المغريات التى جعلت محمد على يفكر فى فتح السودان إلى ما سمعه عن شبابه من الإخلاص والطاعة وشدة البأس ، فتمنى لو أتيحت لجيشه كتيبه أو كتائب سودانية بدلا ممن فيه من الترك والأرنئوط والألبان . ومن أهم المغريات أن المماليك الذين اضطهدهم فى مصر وأوقع بهم فى مذبحة القلعة المشهورة فرَّ كثيرون منهم إلى السودان وخشى أن يكوِّنوا دولة هناك تحمل السلاح ضده ،فرأى أن يتعقبهم ويقضى عليهم قبل استفحال أمرهم . فأصدر قرارا إلى محمد بك لاظوغلى بتجهيز الحملة ، فجمع جيشا من المغاربة والأتراك والأرنئوط والألبان وعربان البوادى ، ورُحِّل الجيش إلى حلفا وعيَّن محمد على ابنه الثالث إسماعيل كامل قائدا له وعين معه مساعدين من كبار القواد . وسار الجيش فى أرض النوبة ، وطلب إلى قبائل الشايقية تسليم خيولهم وأسلحتهم فأبوا وقالوا إنهم يدفعون ضريبة أو إتاوة فقط ولكن لا يدفعون خيولهم واسلحتهم التى نشأوا يحملونها . وصمم إسماعيل كامل على حربهم ، وعلى الرغم من بسالتهم لم يستطيعوا الصمود لرصاص المدافع ، فاستسلمت طائفة منهم وطائفة ولَّتْ وجوهها

(١) انظر مخطوطة كاتب الشونة : تاريخ السلطنة السنارية والإدارة المصرية ، والسودان عبر القرون للدكتور مكى شبيكة ، وعصر محمد على لعبد الرحمن الرافعى ، وتاريخ السودان القديم والحديث لنعوم شقير ، ودائرة المعارف الإسلامية .

إلى مدينة شندى وفيها سلموا له ، وطمأنهم وأخذ فى استمالتهم حتى ارتضوا أن ينضموا إلى جيشه . وكان المماليك قد انسحبوا إلى شندى وآثر عدد منهم التسليم لإسماعيل كامل ، وفرت طائفة منهم إلى كردفان ومنها اتجهوا إلى ليبيا ، ولم يسمع عنهم بعد ذلك خبر . وطائفة اتجهت شرقا نحو الحجاز ، وانقطعت أخبارها . وسلّم له الشايقية وحكام دنقلة وبربر وشندى والجعليين . وواصل إسماعيل كامل زحفه حتى نزل فى مقر أم درمان الحالية ، وفيها وفد عليه أمير العبدلاّب وسلّم له فى أوائل رمضان سة ١٢٣٦هـ/١٨٢١م وهرب منه بعض الناس ولقيه آخرون أعطاهم الأمان لأنفسهم وكساهم ، وزحف إلى الجنوب ، وكان يهدى كل من لقيه من الحكام كسوة وسيفا ، ولقيه ملك الفونج فأمنه وكساه ودخل مدينة سنار فى الثانى عشر من رمضان . وبدون ريب كانت دولة سنار دولة عظيمة أدَّت للإسلام والعروبة خدمات جليلة لمدة ثلاثة قرون ورثاها بعض الشعراء .

وكان إسماعيل كامل قائد الجيش وهو فى دنقله قد أعدَّ حملة بقيادة محمد بك الدفتردار لفتح كردفان ولم يقبل حاكمها التسليم ، والتقى بجيش الدفتردار عند مدينة الأبيض ولم تصنع شيئا السيوف والحراب إزاء الأسلحة النارية ، واستسلمت إمارة كردفان . واستقر إسماعيل كامل فى سنار ، وأخذ يرسل بالسرايا وتأتيه بالغنائم والأسرى . وزار إبراهيم باشا أخاه إسماعيل كامل فى سنار ليُعدَّ العدة معه لإرسال السودانيين إلى أبيه ، وعاد سريعًا . وفرض إسماعيل كامل ضرائب فادحة على السودانيين فغضبوا غضبًا شديدًا فاضطر إلى تخفيضها . وأحسَّ بوخامة مناخ سنار فنزل واد مدنى وبنى بها ثكنات للجيش ومكاتب للحكومة ، وصمم إسماعيل – بعد غيابه عن القاهرة مدة سنتين – أن يعود إليها ، ومر فى عودته بنمر ملك شندى والجعليين ، وطلب منه أن يقدم إليه من الأنعام والنقود ما يبلغ نحو عشرين ألف جنيه ، وهو مبلغ تقصر عنه موارده أو هو مبلغ باهظ ، فلما راجعه قسا عليه ، فصمم نمر على الانتقام وأمر بوضع قصب جاف حول خيمته وأشعله وإسماعيل كامل نائم ، فمات بالاختناق سنة ١٢٣٩ هـ/١٨٢٣ م . وأعقبت ذلك حملات انتقامية للدفتردار قتل فيها آلاف غير من أُسِروا . وعين محمد على لإدارة السودان عثمان بك ونزل فى مكان الخرطوم الآن واتبع سياسة التنكيل بالسودانيين وماذنبهم ؟ ولكنه كان قصير النظر مثل الدفتردار ، وتوفى سريعا . وعين محمد على خورشيد أغا حاكما لإقليم سنار ، وكان عليه أن يرجع الثقةَ للحكومة وأن يعيد إلى السودان من فرَّ إلى الحبشة ملتجئا ونجح فى تحقيق الغايتين ، واتبع فى سنار سياسة عمرانية رشيدة ، ورأى أن تبنى الزراعة فى السودان على الرى المستديم مثل مصر وطلب عمالا منها يجيدون صناعة السواقى وطلب عمالا آخرين لحفر الترع ، واستحضر من مصر أغراس بعض الأشجار المثمرة وشجع زراعة النيلة وقصب السكر ، وطلب كباشا من مصر لتحسين سلالة الضأن فى السودان . ورُقِّى خورشيد إلى رتبة الميرميران ومنح لقب باشا . وبعد اثنى عشر عاما من حكمه

عاد إلى مصر وحزن السودانيون لعودته إذ عرفوا فيه الحاكم العادل الذى أنساهم سنين الدفتردار الدموية ويقول كاتب الشونة عن عودته : « تجهز بكامل ما لديه ونزل بالمراكب فصعب ذلك على الأهالى جميعا وصاروا عند وداعه يتباكون بالدموع » . وخلفه أحمد باشا أبو ودان وكان عهده استمرارا لعهد خورشيد وفيه يقول كاتب الشونة : « ضبط الحكومة أشد ضبط من غير إهمال ولا تفريط ، وأبطل ما كان من تعدى العساكر على الفلاحين فى تسخيرهم فى الأشغال وتسخير بهائمهم .. وبذلك ارتاحت الأهالى وزادت العمارة وكثر الخير وخصبت الأراضى ورخصت الأسعار حتى صار أردب الذرة بخمسة قروش وصارت أيامه أحسن من أيام سلفه ، وإن كانت أيام سلفه أيضا حسنة فى نفسها » . وتوفى أحمد باشا أبو ودان ، فرأى محمد على تقسيم السودان إلى مديريات وترجع كل مديرية رأسًا إلى مصر ، ويتعاون المديرون فى المصالح المشتركة ، وطلب إلى الحكومة العثمانية أن تضم مينائى مصوع وسواكن إلى السودان وأجابته إلى طلبه . ومنذ ولاية ابنه إسماعيل كامل كانت ترسل له جماعات ممن يؤسرون من السودانيين فى الجبال لضمها إلى الجيش . وتبين خطأ هذه السياسة إذ كان كثيرون منهم يموتون فى الطريق أو فى معسكرات مصر . وانتظمت الإدارة منذ ولاية خورشيد بما أخذ به هو ومن جاء بعده من سياسة عمرانية قويمة وتحسين الرى والزراعة وزيادة الإنتاج الحيوانى وجلب العمال المهرة من مصر لصناعة السواقى وحفر الترع .

وخلف عباس الأول بن طوسون جده محمد على سنة ١٨٤٨ وفى عهده أنشئت القنصليات فى الخرطوم ، ومع أنه أغلق فى مصر بعض المدارس أمر بفتح مدرسة كبيرة فى السودان وعين رفاعة الطهطاوى ناظرا لها . غير أن سعيدا حين خلفه أغلق هذه المدرسة ، وفى عهده أبطلت تجارة الرقيق السودانى نهائيا وزار السودان وأمر بإصلاح الأداة الحكومية فى جمع الضرائب وخفّفها ، ورأى أن تبقى كتائب الجند فى السودان وأن لا تسلط على الناس وأن يقف جمعها للضرائب ، وأمر بتنظيم المدن والشوارع وتشجيع السودانيين على إنشاء الحدائق فى منازلهم .

(ب) عهد إسماعيل[1] (١٨٦٣ - ١٨٧٩ م)

كان أول ما عمله إسماعيل تعيين موسى باشا حمدى حكمدارا للسودان وبذلك أعاد للحكم هناك نظام المركزية أيام خورشيد ، وأشرك العنصر السودانى فى الحكم فعين الشيخ أحمد أبو سن كبير قبيلة الشكرية مديرا للخرطوم وسنار وظل فى وظيفته إلى أن توفى بعد عشر سنوات وأظهر قدرة ممتازة برهنت على كفاءة السودانيين الإدارية ،وطالبه إسماعيل بمعاملة السكان بالعدل والعمل على ازدياد العمران فى السودان وتوسيع نطاق تجارته ، وأنشئت فى السودان

(١) انظر فى السودان لعهد إسماعيل كتاب السودان عبر القرون لمكى شبيكة وعصر إسماعيل لعبد الرحمن الرافعى وتاريخ السودان القديم والحديث لنعوم شقير .

زمن حكمدارية موسى حمدى خمس مدارس فى عواصم المديريات : بربر والخرطوم والأبيض وكسلا ودنقلة . وقد أمدت هذه المدارس النظامية الإدارة السودانية بحاجتها من الكتاب والمحاسبين وعمال التلغراف وأحدثت نهضة فى الثقافة والأدب بعد أن كان العلم مقصورا على خلاوى القرآن ومجالس العلوم الشرعية . وأمر إسماعيل بالإنفاق على المساجد وكتاتيب القرآن وفرض رواتب شهرية لها . وعين إسماعيل جعفر مظهر حكمدارا للسودان وكان على معرفة واسعة بالعلوم الدينية والأدبية فكان يجتمع عنده العلماء والأدباء للحوار والمناقشة وشاع فى أيامه الشغف بالعلم والأدب ، وأخذ بعض الشعراء ينظمون قصائد كانت تنشر فى الوقائع المصرية ، وأمر إسماعيل بالتوسع فى نطاق السودان : فى دارفور وبحر الغزال وخط الاستواء . وتطورت الظروف فى بحر الغزال وعُيِّن الزبير السودانى مديرا له ، وساءت العلاقات بينه وبين الزريقات فحاربهم وانتصر عليهم سنة ١٢٩٠ هـ/١٨٧٤ م وفرَّ مشايخهم إلى سلطان دارفور فنازله الزبير وقتل فى إحدى المعارك ، ودخل الزبير عاصمته : الفاشر سنة ١٢٩٢ هـ/١٨٧٦ م وضمت دارفور إلى السودان ، وكان ذلك من الزبير عملا جليلا .

أما خط الأستواء فقد ارتبط مصيره بإنجليزيين أحدهما مكتشف مهم هو صموئيل بيكر مكتشف بحيرة ألبرت الاستوائية ، والثانى ضابط إنجليزى هو غوردون ، وكان صموئيل بيكر زار مصر فى أوائل سنة ١٢٨٠ هـ/١٨٦٩ م بمعية ولى عهد المملكة الإنجليزية ، فتعرف عليه إسماعيل واختاره للقيام بحملة على خط الاستواء وضمه لمصر ، وارتضى ذلك صموئيل بكير وحُرِّر معه عقد لمدة أربع سنوات براتب سنوى يبلغ نحو عشرة آلاف جنيه . وهى إحدى غلطات إسماعيل الكبرى أن يعهد إلى إنجليزى بفتح منطقة خط الاستواء ظانا أنه سيخدم مصر ، وأسرَّ صموئيل بيكر فى نفسه أن يخدم بلاده بجعل منطقة خط الاستواء مستعمرة بريطانية لو استطاع ، ووضع نصيب عينية تأليب السودانيين على مصر والمصريين ، وأنفقت الحملة ثمانمائة ألف من الجنيهات ، ولم تتم عملية الفتح والضم كما كان مظنونا ، وكل ما جنته مصر من الحملة طوال أربع سنوات تأسيس ثلاث محطات هناك فى غندوكرو وفاتيكو وفويرا ورفع أعلام مصرية عليها . وانتهى عقد بيكر وعاد إلى بلاده ، وبدلا من أن يعهد إسماعيل إلى مصرى أو سودانى بإتمام الفتح قدم إليه وزيره نوبار ضابطا إنجليزيا تعرف عليه فى السفارة الإنجليزية بالآستانة هو غوردون الذى خدم دولته فى حروب القرم وفى الصين ، فارتضاه إسماعيل ليتمم ما بدأه صموئيل بيكر فى منطقة خط الاستواء ، فنجح هناك فى تأسيس مجموعة من المحطات العسكرية ، وكان سياسيا ماكرا فجذب قلوب الناس إليه ، واضطر للدخول فى مناوشات مع أوغندة والبلدان المجاورة ، وأحسَّ بالإرهاق فعاد إلى مصر مصمما على عدم العودة إلى السودان ، غير أن إسماعيل أقنعه بإكمال مهمته ، فوعده برجوعه بعد زيارته لبلاده .

وكانت مصر استولت على سواكن ومصوع ودخلت كل المنطقة الشرقية فى السودان ،

وفى سنة ١٢٨٧ هـ/١٨٧١ م وصل المصريون إلى حدود الحبشة فنشبت حرب بينهم وبين الحبشة وتوفى ملكها يوحنا بعد قليل واستولى المصريون على مرتفعات إرتريا فى سنتى ١٢٩١ هـ/١٨٧٥ م و ١٢٩٢ هـ/١٨٧٦ م وبذلك اتسعت إمبراطورية إسماعيل من البحر المتوسط إلى منطقة البحيرات فى أعالى النيل : ألبرت وفيكتوريا ومن سواحل البحر الأحمر وسواكن ومصوع وزيلع إلى دارفور شرقى بحيرة تشاد ، وبسطت حمايتها على خليج عدن وبوغاز باب المندب وعلى أوغندة ووصلت حدودها إلى المحيط الهندى ورأس جرفوس عليه . واعترفت إنجلترا بسلطان مصر على الصومال . ويعود غوردون ويلقى إسماعيل سنة ١٢٩٣ هـ/١٨٧٧ م بحضور وزيره شريف باشا ويجيبه إسماعيل إلى ما طلبه من تعيينه حكمدارًا عامًّا على السودان وأعطاه سلطات لم تعط لحكمدار قبله وينزل السودان ويبدأ بتفقد الشرق ، وفى مصوع جاءه خبر بالتمرد والعصيان فى إقليم دارفور وظل يعالج الأمور هناك فترة طويلة ، وشك فى إخلاص السودانيين وفكر فى الاستعانة بإنجليز وأروبيين وهى فكرة خاطئة . وجاءه خبر تنازل إسماعيل صديقه عن الحكم وان ابنه « توفيق » خلفه ، فصمم على اعتزال العمل فى السودان ، إذ لن يظل متمتعا بما أتاح له إسماعيل من سلطات واسعة . ومن المؤكد أن الحكم المصرى للسودان الشقيق أتاح له تقدما فى العمران وزيادة فى الإنتاج واستغلال الثروة الزراعية والحيوانية وازدهارا فى التجارة مع تأسيس المدارس للتعليم المدنى ونشر المعارف العلمية الحديثة .

٥

حركة المهدى – خليفته عبد الله التعايشى

(أ) حركة[1] المهدى

المهدى هو محمد بن عبد الله ولد سنة ١٢٦٠ هـ/١٨٤٤ م لأب كان يعمل نجارا فى بناء السفن بمنطقة دنقلة ، وهاجر فى النيل جنوبا ونزل فى مدينة شندى وتركها إلى قرية شمالى أم درمان ، وتوفى . واحترف إخوة محمد مهنة أبيهم ، أما هو فكان يميل بفطرته نحو الدين ودخل خلوة حفظ فيها القرآن الكريم ، وبعد حفظه له التحق بشيخ أو بشيوخ يتعلم على أيديهم الفقه والتوحيد والنحو ويتلقن التصوف . وكان إخوته بعد وفاة والدهم نزلوا الخرطوم ونزلها معهم ، ولزم شيخا صوفيا من أتباع الطريقة السمانية وعنه تلقّن تلك الطريقة ، وأخذ يميل إلى النسك والعزلة ، واعتزل سنة ١٢٨٦ هـ/ ١٨٧٠ م فى جزيرة أبا فى النيل الأبيض

(١) انظر فى تلك الحركة كتابى السودان عبر القرون والسودان فى قرن للدكتور مكى شبيكة وتاريخ السودان القديم والحديث لنعوم شقير ومصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال لعبد الرحمن الرافعى ودائرة المعارف الإسلامية .

وانصرف فى كهف بها على شاطىء النهر للنسك والعبادة ، واختلف مع شيخه الصوفى الشيخ محمد شريف إذ وجده يحتفل فى ختان أحد أبنائه بصور من اللهو لم يَسْتَسِغْها تصوفه ، وبحث عن شيخ آخر من أصحاب طريقته السمانية جدَّد عليه العهد . وكانت أسرته تذكر أنها من سلالة الرسول ﷺ فأخذ يكاتب مشايخ الطرق وبعض العلماء سرا بأنه المهدىّ المنتظر الذى بشَّر به الرسول ، وأعلن لهم أن الله خصَّه بذلك لنصرة الإسلام وأن النصر سيُلازمه ، وأخذ مريدوه من السودانيين يتكاثرون ويلتفون حوله ، ولما اتسعت دعوته أرسلت إليه الحكومة قوة إلى جزيرة أبا فاستطاع بمن معه من الدراويش أن يقهرها ورأى المهدى أن يخرج من تلك الجزيرة لأنها مكشوفة ولا تساعده على التحصن ضد القوة الكبيرة التى سترسلها الحكومة واتجه إلى منطقة تقلى فى كردفان ونزل فى جبل قدير واستقر به ، ووجَّه إليه مدير فاشودة قوة لقتاله وقضى عليها ، وعقب هذه الهزيمة لقوات الحكومة طلب رءوف باشا حاكم السودان إمدادات عسكرية من مصر وكان العرابيون يسيطرون على الوزارة ، فرأوا إرسال عبد القادر باشا حلمى ، وقبل وصوله تألف جيش بقيادة يوسف باشا الشلالى لمنازلة المهدى سنة ١٢٩٩ هـ/١٨٨٢ م فى مستقره بجبل قدير ، وهزم هذا الجيش مثل الحملتين السابقتين له ، وأكسبه هذا النصر أنصارا كثيرين ، وثار كثيرون معه فى الجزيرة ولكن الحكومة أخمدت ثوراتهم وأعاد إلى الجزيرة عبد القادر باشا حلمى الهدوء . وفى سنة ١٣٠٠ هـ/١٨٨٣ م هاجم مدينة الأبيِّض واستولى عليها واتخذها مقرا له ، وجاءه مريدون كثيرون من أنحاء السودان يريدون رؤية « ولى الله».

وكان الإنجليز قد احتلوا مصر فأرسلت حكومة الاحتلال عشرة آلاف جندى بقيادة هكس باشا الإنجليزى وهاجمت المهدى فى الأبيض وأبيدت إبادة تامة ، وغنم الأنصار أتباع المهدى غنائم كثيرة ، وأخذت الوفود تفد من جميع أنحاء السودان لمبايعة المهدى وأخذ النساء فى الأفراح وفى أعمالهن من احتطاب وغيره يتغنين بالمهدى ومناقبه ، واضطربت الحكومتان المصرية والإنجليزية ورأى الإنجليز جلاء المصريين عن الخرطوم . وفى ديسمبر سنة ١٨٨٣ للميلاد استسلم للمهدى الضابط النمساوى سلاتين باشا حاكم دارفور باسم الحكومة المصرية بعد أن ظل يناضل أتباعه سنة كاملة دون جدوى . وعادت إنجلترا للضغط على مصر بالجلاء عن السودان وأصرَّ شريف باشا على الاحتفاظ بالسودان ، واستقال فى أوائل يناير سنة ١٨٨٤ وخلفه نوبار باشا ، ورأت الحكومة فى إنجلترا أن غوردون هو الذى يمكنه إنقاذ الموقف وإجلاء الجنود المصريين عن السودان ، فقبل المهمة ظانا أنه يتمتع بشخصية شعبية فى السودان ونسى أنه أغضب كثيرين منهم لمكافحته تجارة الرقيق ، ولم يكن يتصور مدى الحماسة الدينية التى أشعلها المهدى فى نفوس السودانيين ، ووصل الخرطوم فى فبراير سنة ١٨٨٤ وأرسل توا إلى المهدى خطابا يعينه فيه ملكا على كردفان وأعلن فيه أنه يبيح تجارة الرقيق ، وأجابه

المهدى طالبا منه الاستسلام والدخول فى الإسلام بينما كان هو يفكر فى منح السودان استقلالا ذاتيا تحت نفوذ الحكم الإنجليزى ، وبدا أنه من غير الممكن الاتفاق بين الرجلين ، ونشبت مناوشات فى الشرق عطلت الطريق إلى ميناء سواكن على البحر الأحمر وأرسلت إنجلترا حملة بقيادة جراهام لم يكتب لها النجاح ، وسقطت مدينة بربر فى أيدى الأنصار أو المهديين ، وأرسلت إنجلترا حملة بقيادة ولسلى وتجمعت قوة مصرية إنجليزية فى أسوان وحلفا وأخذت طريقها فى النيل وهزمت بعض قوات المهدى فى المراكز الأمامية ، وأخذ المهدى يعدّ جيشه للاستيلاء على الخرطوم ، وشاعره الشيخ محمد عمر البنا ينشده قصيدته :

الحربُ صبرٌ واللقـاءُ ثباتُ والموتُ فى شأن الإله حياةُ

وتجمع أتباعه جنوبى طابية أم درمان فى أواخر أكتوبر سنة ١٨٨٤ للميلاد ولم يسرع المهدى فى فتح الخرطوم ورأى حصارها حتى تستسلم حقنا للدماء . وبلغ المهدى أن الحملة المصرية الإنجليزية وصلت المتمة فأمر بالهجوم على الخرطوم فى السادس والعشرين من يناير قبل وصولها ، ودخلها الأنصار من ثغرة فى طرف الاستحكامات على النيل الأبيض وفتكوا بالحامية ، وقتل غوردون فى قصره . ودان للمهدى السودان بجميع أرجائه ، وانتقل بمعسكره إلى أم درمان وأذعنت له دنقلة وأخذت الحاميات المصرية تستسلم وأعلن الإنجليز إخلاء السودان من جنودهم . وما وافى اليوم الرابع من رمضان سنة ١٣٠٢ هـ/ الخامس عشر من يونية سنة ١٨٨٥ م حتى أصابت المهدى حمى التيفوس ولم تمهله إذ توفى بعد أسبوع . وأثرت له تعاليم من شأنها أن تجعل لدعوته أسسا واضحة سنتحدث عنها فى الفصل المقبل وأثرت عنه بعض مواعظ مثل قوله : « إذا دخلتم فى الصلاة فادخلوها بالحضور والخشوع والخضوع والتذلل والابتهال والانكسار وانسكاب الدموع إن استطعتم مع توجه القلب إلى الله وقول لا عيش إلا فى دارك ولا نعيم إلا فى لقائك » .

(ب) عبد الله التعايشى[1] خليفة المهدى

استخلف المهدى – وهو يحتضر – عبد الله التعايشى يده المنى فى دعوته ، ونقل عاصمته إلى أم درمان : قلعة الخرطوم على الضفة اليسرى ، وكان قد هاجر إلى المهدى مبكرا وهو لا يزال فى جزيرة أبا وبايعه ، وأخذ المهدى يعتمد عليه فى الإدارة والتنفيذ ، فطبيعى أن يعهد إليه بخلافته ، وكان عماده على أهل الغرب وخاصة على قبيلته البقارة الذين نقلهم إلى أم درمان ، ومنهم ومن الجعليين نظم قوته العسكرية . وجعل فى أول الأمر شئون الحكم والإدارة فى أيدى أسرة المهدى وسُمُوِّ الأشراف ، وندب التعايشى ستة عشر قاضيا للحكم بين الناس

(١) انظر فى التعايشى وخلافته للمهدى كتاب السودان عبر القرون والسودان فى قرن للدكتور مكى شبيكة وتاريخ السودان القديم والحديث لنعوم شقير ومصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال لعبد الرحمن الرافعى .

بموجب الكتاب والسنة ، وقسم السودان إلى عمالات أو أقاليم ، وجعل على كل عمالة أو إقليم حاكما ، يسيطر على الجيش والإدارة ومع كل حاكم عدد من الموظفين يساعدونه فى أعماله الإدارية ، واستحالت العاصمة أم درمان من معسكر إلى مدينة كبيرة .

وكانت مصر قد استردت حاميتها من ميناء مصوع فاحتلها الإيطاليون واحتلوا أيضا إريتريا سنة ١٣٠٢ هـ/١٨٨٥ م وأسرع التعايشى وعين على مدينة القلابات عاملا ناوش الأحباش وقُتل فى إحدى المعارك ، ويرسل إليها قائده أبا عنجة على رأس جيش كبير يتألف من نحو ستين ألف جندى لقتال الحبشة ، ولقيه جيش حبشى بقيادة الرأس عدار ومُنى الأحباش بهزيمة قاصمة ، وتقدم المهديون إلى قُندر (غوندار) عاصمة الحبشة حينذاك وأحرقوها . ومنذ سنة ١٣٠٣ هـ/١٨٨٦ م أصبح بحر الغزال دون حاكم يشرف على شئونه ، وبالمثل مديرية خط الاستواء وكانت سقطت فى أيدى أتباع المهدى سنة ١٣٠٥ هـ/١٨٨٨ م وضمَّها الإنجليز إلى مستعمرتهم أوغنده . وصمم يوحنا إمبرطور الحبشة سنة ١٨٨٩ للميلاد على أن يغسل عن جيشه عار هزيمة سنة ١٨٨٦ فحشد جيشه جميعه وتقدم به إلى القلابات لحرب المهديين أو الأنصار ، والتقوا به ودارت الدوائر على جيشه وجرح فى المعركة جرحا مميتا وانسحب جيشه ووراءه الأنصار يقتلون ويأسرون ويستولون على غنائم لا تحصى من العبيد والجوارى والأسلحة والخيول وتاج الإمبراطور نفسه ، وهو نصر رفع الروح الحربية والمعنوية فى الأنصار إلى الذروة .

وصمم التعايشى على غزو مصر وإنقاذها من الاحتلال الإنجليزى وأعدَّ لذلك فى نفس السنة جيشا بقيادة عبد الرحمن النجومى ، وهو من الجعليين ، وسار إلى الشمال متجها إلى أسوان ومصر ولكن حامية وادى حلفا أنزلت بجيشه خسائر فادحة ، وزادتها فداحة وجسامة معركة توشكى بعدها بحيث قضى على الجيش السودانى قضاء نهائيا . وفى السنة نفسها انتشرت فى السودان مجاعة كبيرة ، وكان التعايشى محاطا بالأعداء من كل جانب فلم يستطع تموين البلاد من الخارج . وفى سنة ١٣٠٧ هـ/١٨٩٠ م أخضع التعايشى قبائل الشلوك أشجع القبائل السودانية الزنجية فى الجنوب ودخلت عاصمتها فاشودة فى طاعته ، وكان ذلك تعويضا له عن خسائره فى الشمال وفى المجاعة . واستطاعت قوة مصرية فى سنة ١٣٠٨ هـ/١٨٩١ م أن تهزم عثمان دقنة قائد التعايشى بالقرب من مدينة طوكر جنوبى سواكن واستردتها . وفى سنة ١٣١١ هـ/١٨٩٤ م استولى الإيطاليون على مدينة كسلا السودانية بالقرب من حدود إريتريا . ونشبت حرب بين إيطاليا مالكة مصوع وكسلا وبين الحبشة فى عهد إمبراطورها الجديد مَنليك سنة ١٨٩٥ للميلاد وأنزل الأحباش بالإيطاليين هزيمة ساحقة فى غرة مارس سنة ١٨٩٦ عند مدينة عدوة ، وبذلك قضى على ما كان يتهدد أتباع التعايشى من خطر الطليان . غير أن خطرا أعظم أخذ يبدو فى الأفق ، فقد رؤى إنشاء خط حديدى من وادى حلفا إلى مدينة أبى حمد بين الشلالين الرابع والخامس يمكن استغلاله فى نقل الجيوش سنة

١٣١٣ هـ/١٨٩٦ م وصدرت الأوامر إلى سردار الجيش المصرى أو بعبارة أخرى قائده العام كتشنر لإعداد جيش لفتح السودان ، ومرَّ الجيش بوادى حلفا ، واسترجع مديرية دنقلة . واستراح الجيش ثم وصل إلى أبى حمد فى أغسطس سنة ١٨٩٧ للميلاد ، وفى هذه السنة استولى الجيش المصرى على كسلا ورفع هناك العلم المصرى ، وتقدم كتشنر بالجيش وانتصر فى معركة عند عطبرة فى أبريل سنة ١٨٩٨ للميلاد ، ومضى فى زحفه حتى أم درمان ونشبت معركة حامية الوطيس فى شهر سبتمبر دارت فيها الدوائر على الأنصار . واتجه التعايشى إلى الغرب يريد أن يحتمى به ، وظل أشهرا يعدّ العدة للقاء كتشنر ثانية ورفع كتشنر العلمين المصرى والأنجليزى على سراى الحكم فى الخرطوم ودارت موقعة بين التعايشى وبين بعض متعقبيه من جند كتشنر فى نوفمبر سنة ١٨٩٨ وتوفى . وبموته دانت البلاد للجيش الفاتح .

٦

الحكم[1] الثنائى المصرى الإنجليزى فى السودان

رأينا كتشنر بمجرد دخوله الخرطوم يرفع على سراى الحكم العلمين المصرى والإنجليزى ، وكان كرومر المندوب السامى البريطانى قد استطاع أن يقنع نوبار باشا فى يناير سنة ١٨٩٩ للميلاد بتوقيعه على وثيقة الحكم الثنائى المصرى الإنجليزى للسودان ، وعينت الوثيقة خط العرض ٢٢° شمالا حدا فاصلا بين مصر والسودان ، وأن يرفع العلمان المصرى والإنجليزى على جميع دور الحكومة وأن تكون الإدارتان العسكرية والمدنية بيد موظف ترشحه الحكومة البريطانية ويعينه خديوى مصر ، ويلقب بحاكم عموم السودان ولمنشوراته حكم القانون ولا يسمح لتمثيل قنصلى فى السودان إلا بموافقة الحكومة البريطانية ، ولا تمتد سلطة المحاكم المختلطة إلى أى جزء فى السودان . وواضح أن الحاكم العام يكون إنجليزيا وترشحه الحكومة الإنجليزية ، ومُنح سلطات كبيرة تجعله حاكما مستقلا . ورأى كرومر أن تكون مناصب المديرين والمفتشين للإنجليز ، أما المصريون فلهم إدارة المراكز والمأموريات . وربما كانت الحسنة الوحيدة فى هذه الاتفاقية أن السودان أعفى من الامتيازات الأجنبية . وعيَّن كتشنر أول حاكم عام للسودان وقد جمع من السودانيين تبرعات لإنشاء مدرسة ثانوية تسمى كلية ذكرى غوردون ، وبلغت التبرعات مائة ألف جنيه . وافتتحت المدرسة سنة ١٩٠٣ وأنشئت فيها أقسام متخصصة : قسم للشريعة الإسلامية لتخريج القضاة ، وقسم للمهندسين وقسم للمعلمين ، وظلت مصر تُعين السودان ماليا حتى سنة ١٩٥٤ ووُضعت نظم للشئون المالية والشئون الإدارية وللتعليم

(١) انظر السودان عبر القرون للدكتور مكى شبيكة وتاريخ السودان القديم الحديث لنعوم شقير وراجع فى استعادة السودان واتفاقية يناير سنة ١٨٩٩ كتاب مصر والسودان أوائل عهد الاحتلال للرافعى ودائرة المعارف الإسلامية .

والقضاء والمصالح الحكومية . وترك كتشنر السودان فى ديسمبر سنة ١٨٩٩ وخلفه وينجت حاكما عاما للسودان حتى سنة ١٣٣٤ هـ/١٩١٦ م ، وأنشىء - حسب الاتفاقية الثنائية - مجلس سنة ١٩١٠ باسم مجلس الحاكم العام . وعُنى الحكم الثنائى بالمواصلات والبرق (التلغراف) ومُدَّت سكة حديد من وادى حلفا إلى الخرطوم وأضيف خط إلى سنار والأبيض وخط من عطبرة إلى سواكن على البحر الأحمر وأنشىء خط ملاحة نهرى من الخرطوم إلى بحر الغزال ، ووضعت مشروعات رى كثيرة بعد الدراسة ، منها مشروع الجزيرة المشهور وجُرِّبت زراعة القطن ونجحت نجاحا كبيرا ، وأسست مدارس أولية فى المدن الكبرى ، وأنشئت ورش صناعية ، وكان يقوم بالتعليم فى هذه المدارس معلمون مصريون أكفاء ، وأنشئت مدارس لتخريج المعلمين .

وقامت بعض ثورات محلية فى الحرب العظمى وسرعان ما كانت تخمد ، وبالمثل ما حدث من بعض الثورات فى جبال النوبة . وتضطرب العلاقة بين على دينار سلطان دارفور والحكومة ويحمل السلاح ضد الحكومة ويتوفى برصاصة طائشة سنة ١٩١٦ وتضم دارفور إلى السودان نهائيا ويصبح تاريخها جزءا من تاريخ السودان . ومع الثورة المصرية سنة ١٩١٩ نشط الوعى القومى فى السودان للمطالبة بحقوقه ثم كان مقتل السير لى ستاك حاكم السودان وسر دار الجيش المصرى سنة ١٣٤٢ هـ/١٩٢٤ م وخرج الجيش المصرى - بضغط الإنجليز - من السودان فاندلعت هناك ثورة وطنية ضخمة تعد - بحق - بدء العصر الحديث فى السودان الشقيق .

الفصل الثانى

المجتمع السودانى – الثقافة

١

المجتمع[١] السودانى

رأينا فى الفصل الماضى كيف أن الإسلام أخذ ينتشر فى السودان وشرقيه تدريجا بفضل القبائل العربية الكثيرة التى نزلت فى حوض النيل جنوبى حلفا وفى شرقيه بقبائل البجّة واستغرق ذلك قرونا دخل فيها أهل النوبة فى الدين الحنيف وقامت فى دنقلة سنة ٧١٦ هـ/١٣١٦ م أول دولة إسلامية وأخذت صلة مملكة علوة جنوبى دنقلة بالكنيسة اليعقوبية فى الإسكندرية تتضاءل وأخذ أهلها يعتنقون الإسلام ، وكان انتشاره فى غربى السودان أسرع بفضل كثرة من نزله من قبيلة زوارة البربرية وعرب الشاوية رعاة الشاة وأيضا بفضل تجار البرنو والكانم ، وتكونت سريعا فى دارفور ووادى مملكة إسلامية أواخر القرن الخامس الهجرى .

وأخذ الإسلام ينتشر تدريجا فى مملكة علوة وفى جبال النوبة وعلى شاطىء النيل الأبيض وفى جنوبى السوباط وبحر الغزال ، ولا نصل إلى القرن العاشر الهجرى ، حتى يصبح السودان بلدا إسلاميا وإن ظلت به بعض الجيوب المسيحية والوثنية ، وتتأسس سنة ٩١٠هـ/١٥٠٤م دولة الفونج الإسلامية فى مدينة سنار على النيل الأزرق وتنشر سلطانها على النيل الأبيض وعلى الجزيرة بينه وبين النيل الأزرق وعلى مملكة تقلى فى جبال النوبة .

(أ) نزعة صوفية عامة

عملت دولة الفونج على نهضة دينية واسعة ، وفسحت للتصوف وطرقه فى الانتشار بأنحائها وكان أول من حاول نشره فى ديارها الشيخ تاج الدين البهارى البغدادى وكان قد تعرف عليه بعض حجاج السودان فى أثناء حجه ، وأقنعه بالذهاب معه إلى سنار ونشر طريقته الصوفية بها ، وكان من أتباع الطريقة القادرية لعبد القادر الجيلانى الحسينى نسبا المتوفى ببغداد

(١) انظر فى المجتمع السودانى كتاب الطبقات لود ضيف الله وتاريخ الثقافة العربية فى السودان للدكتور عبد المجيد عابدين وكتاب الثقافة العربية وأثرها فى تماسك الوحدة القومية فى السودان المعاصر للدكتور محمد فوزى مصطفى عبد الرحمن وتاريخ السودان القديم والحديث لنعوم شقير والتربية فى السودان لعبد العزيز عبد المجيد والسودان عبر القرون للدكتور مكى شبيكة ومنشورات المهدى .

سنة ٥٦١ هـ/١١٦٥ م وله كتابان مطبوعان هما سر الأسرار والغُنْية لطالبى الحق ، وطريقته إحدى طريقتين صوفيتين سنيتين والثانية الطريقة الرفاعية للشيخ أحمد الرفاعى المتوفى سنة ٥٧٨ هـ/١١٨٢ م أشاعتهما بغداد فى العالم العربى ، ويقول ابن تغرى بردى عن الجيلانى إنه « أحد المشايخ الذين طنَّ ذكرهم فى الشرق والغرب » .

ونزل الشيخ تاج الدين البهارى البغدادى مدينة سنار حوالى سنة ٩٥٢ هـ/١٥٤٥ م وأخذ يدعو للطريقة الجيلانية ، وحظيت دعوته بنجاح كبير فى دولة الفونج وبخاصة فى أرض الجزيرة التى أقام بها سبع سنوات ، وجاءه السودانيون من كل مكان لينظمهم فى سلك الطريقة القادرية ، وأخذ العهد على كثيرين من أهمهم محمد الأمين بن عبد الصادق جد الصادقاب فى إقليم سوكى بين واد مدنى والقضارف والشيخ عجيب المانجلك جد العبدلاَّب وعبد الله دفع الله العركى جد العركيين وبان النقا الضرير جد اليعقوباب ويقال إن الشيخ البهارى قلَّده شعار الرياسة بعده فى دولة الفونج . وهؤلاء الأربعة سيطروا على السلطة الروحية وورَّثوها أبناءهم ، وارتحل الشيخ البهارى إلى تقلى وأدخل فى الطريقة عبد الله الحمال جد الشيخ حمد ولد الترابى مع جماعته . وتفرعت عن هذه الطريقة فى أواخر دولة الفونج الطريقة السمانية على يد الشيخ أحمد الطيب ود البشير المتوفى سنة ١٢٣٩ هـ/١٨٢٣ م . وكل هؤلاء وذرياتهم ظلوا قائمين على الطريقة القادرية ناشرين لها ومسيطرين على السلطة الروحية فى السودان إلى اليوم .

وبجانب الطريقة القادرية الصوفية عرف السودان فى دولة الفونج الطريقة الشاذلية الصوفية ويبدو أن معرفته بهذه الطريقة تسبق زمنيا قيام دولة الفونج . فقد نزله أحد أتباعها المغاربة – وهو حمد أبو دنانة زوج بنت الشيخ محمد بن سليمان الجزولى مؤلف دلائل الخيرات وداعية الطريقة الشاذلية فى المغرب منذ سنة ٨٤٩ هـ/١٤٤٥ م . ومعروف أن أبا الحسن الشاذلى مؤسس هذه الطريقة نزل مصر ودعا إلى طريقته وتبعه خلق كثير ، وتوفى سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م وظلت طريقته إحدى الطرق الصوفية السنية الأساسية فى مصر . ومن أهم دعاتها فى السودان أيام الفونج الشيخ خوجلى عبد الرحمن المحسى المتوفى سنة ١١١٥ هـ/١٧٤٣ م واشتهر بعده بالدعوة لها الشيخ حمد المجذوب المتوفى سنة ١١٩٠ هـ/١٧٧٦ م وكان قد زار مصر والحجاز وأسس للشاذلية فرعا فى مدينة الدامر شمالى الخرطوم وسميت طريقته باسم طريقة المجاذيب ، ومعروف أن الطريقة الشاذلية تقوم على التمسك بالكتاب والسنة والشريعة المحمدية بجانب النسك والعبادة وصدق القلب والشعور الباطنى الصوفى ، وهاجم الشاذلى بشدة حياة الخانقاهات والتسول التى كان يعيشها الدراويش الرُّحَّل . وبجانب هاتين الطريقتين كان بعض السودانيين يأخذون طريقتهم الصوفية عن حجازيين فى أثناء حجهم أو عن مصريين فى أثناء دراستهم بالأزهر وأحيانا عن بعض أهل تمبكتو كما حدث للشيخ خوجلى عبد الرحمن الشاذلى المذكور

آنفا ، وقد جمع بين التصوف وعلم الكلام والفقه ، أما التصوف فأخذه عن الشيخ أحمد التمبكتاوى نسبة إلى تمبكتو على النيجر الأوسط ، وأخذ علم الكلام عن الشيخ أرباب الخشن ، والفقه على الشيخ الزين بن صغيرون . وكان يلبث الثياب الفاخرة ، وعلى رأسه الطربوش الأحمر ، ويتعمَّم بالشيشان الفاخرة ، ويتبخَّر بالعود الهندى ويتعطَّر ، ويجعل الزباد الحبشى فى لحيته وثيابه ، ويقول إنه يقتدى فى ذلك بشيخ طريقته أبى الحسن الشاذلى إظهارا لنعمة الله ، فقيل له إن القادرية : إنما يلبسون الجبب والمرقَّعات فقال : ثيابى تقول للخلق : أنا غنية عنكم ، وثيابهم تقول لهم أنا مفتقرة إليكم .

وعمت فى زمن دولة الفونج (٩١٠ هـ/١٥٠٤ م – ١٢٣٦ هـ/١٨٢٠ م) النزعة الصوفية كل أنحاء السودان ، وبحق ما لاحظه الدكتور عبد العزيز عبد المجيد فى كتابه : « التربية فى السودان » من أن هذه النزعة كانت تعم حينئذ الحياة الدينية فى العالم الإسلامى وإنها « سيطرت على عقائد الناس وتفكيرهم وامتزجت بالدراسات الإسلامية ، وصار من العلماء من يعتقد أن علم الظاهر لابد له من علم الباطن بل إن منهم من اعتبر أن علم الباطن هو العلم الحقيقى » ومما يدل على ذلك بوضوح ما يذكره ود ضيف الله عن الشيخ عبد الله العركى فإنه بعد أن تفقه على الشيخ عبد الرحمن بن جابر ذهب إلى غابة الهلالية وشرع فى التدريس وذاع صيته ، وقدم فى أيامه الشيخ تاج الدين البهارى فحاول أن يدخله فى طريقته القادرية الصوفية ، فامتنع ، وحين رأى ما لأتباع الشيخ من مكانة تحركت فى نفسه الرغبة فى أن ينضم إلى الطريقة القادرية ، وكان الشيخ البهارى رحل إلى مكة فسافر إليه وأخذ عنه الطريق . ومن ذلك أن نجد الشيخ المسلمى الصغير بعد أن قرأ مختصر خليل فى الفقه المالكى وتفقه فى الدين رأى أن معرفته لا تتكامل إلا إذا دخل فى طريقة صوفية فذهب إلى الشيخ دفع الله العركى وقال له : « علمى ما نفعنى ، أتيتكم راغبا مددكم ، فسلكه فى الطريق وأدخله خلوة سبعة أيام ، وخرج منها « صوفيا » كاملا . ويذكر ود ضيف الله أيضا عن الشيخ أبى القاسم الوديانابى أنه تفقه على الشيخ صغيرون ، وسلك طريق الصوفية على الشيخ إدريس . ومن ذلك ما يقوله ود ضيف الله عن الشيخ محمد البنوفرى من أنه رحل إلى مصر ليقرأ على علمائها مختصر خليل ، وبعد عودته إلى السودان صحب فى التصوف الشيخ إدريس ود الأرباب . ويُكثر ود ضيف الله فى طبقاته من قوله عن هذا الصوفى أو ذاك إنه جمع بين الفقه والتصوف .

ومما رفع من شأن الطرق الصوفية وأصحابها فى نظر أهل السودان وجعلهم يلتفُّون حولهم التفافا لم ينله أحد من الفقهاء وعلماء الشريعة الإسلامية أنهم رأوهم لا يعملون حسابا لذوى السلطان ، إذ كانوا لا يأخذون رواتب منهم ، كما رأوهم يتفانون فى خدمة أتباعهم وخاصة فى أيام الضيق والعسر الشديد . ويعرض علينا ود ضيف الله فى كتابه الطبقات صورا متعددة

توضح مدى ما كان ينهض به الشيخ الصوفى لأتباعه حين تحدث مجاعة كمجاعة نجيع أم لحم سنة ١٠٩٥ هـ/١٦٨٤ م فإن شيوخ الصوفية فتحوا حينئذ لأتباعهم خلواتهم وقدموا لهم فيها الطعام ، وكان بعضهم يظل يقدم هذا الطعام حتى فى سنوات الخصب مثل الشيخ ود حسونه ، ويقول عنه ود ضيف الله ، إنه كان يعنى بالفقراء (أتباع المتصوفة) فى الخلوات فيذبح لكل خلوة من خلواته شاتين فى كل يوم ، وكان عدد خلواته إحدى عشرة وقيل بل ثلاث عشرة .

ورأى أهل السودان أن هؤلاء الشيوخ لا يهابون ذووى السلطان ، وإذا كان لأحد منهم شيئا عند حاكم طلب إلى شيخه الصوفى أن يقضيه له ويلبى طلبه وسرعان ما يقضيه له الحاكم ، ومن ذلك أن الشيخ حمد المجذوب صاحب الطريقة الشاذلية فى مدينة الدامر اشتهر بأنه كثير الشفاعة لأتباعه عند الملوك والسلاطين وكانوا لا يردون له شفاعة . وكان كثير من الحكام يهابون هؤلاء الشيوخ هيبة شديدة ، وبلغ الشيخ خوجلى من الهيبة فى نفوسهم مبلغا كبيرا ، حتى قيل إن أكابر العلماء والسلاطين إذا جلسوا بحضرته كانوا كالأطفال من هيبته ، لذلك كانوا لا يعصون له ولأمثاله طلبا . ويذكر ود ضيف الله عن الشيخ إدريس أنه دخل سنار مقر الملك للشفاعة فى مصالح أتباعه إحدى وسبعين مرة . ويقول ود ضيف الله عن الشيخ بدر بن سليمان العوضى إن قبائل العرب فى مدينة بربر وغيرها كانت لا ترد له شفاعة وكان له كرم وضيافة للوافدين .

وهذا وجه مهم من وجوه تعلق أهل السودان بالمتصوفة ، إذ كانوا يدافعون عن حقوقهم ويردون الظلم عنهم ويشفعون لهم ويغيثونهم كلما ألمت بهم كارثة ويفتحون خلواتهم لإيواء الضعفاء منهم وإطعامهم . لذلك تعلق أهل السودان بهم وأخذوا يدخلون أفواجا فى دعوة كل شيخ وطريقته وانتهاج ما تأمر به فى العبادة والتقوى . وكان يغلب أن يختار الشيخ قرية يجعلها مركزا لدعوته ويبنى فيها مسجدا وخلواته ، وما يلبث أن يلتفّ به كثير من الأتباع ، ويأتيه الناس من القرى المجاورة ، كما حدث فى قرية العيلفون جنوبى الخرطوم فقد أسس بها الشيخ إدريس ود الأرباب مركز دعوته الصوفية ، وتوافد عليه الناس من كل فجٍّ سودانى ، وأصبحت بعد قليل بلدة كبيرة متسعة الرقعة آهلة بالسكان ممن جاءوا يأخذون عنه الطريقة القادرية . ومن ذلك ما حدث لقرية الدامر حين اتخذها الشيخ حمد المجذوب مركزا لدعوته الشاذلية ، فقد وفد إليه الناس من دارفور وكردفان وجميع أنحاء السودان ، ليأخذوا عنه تعاليم طريقته . وكثيرا ما يتوقف ود ضيف الله فى كتابه الطبقات ليقول لنا إن هذا الشيخ أو ذاك شُدَّت إليه الرجال وضُربت إليه آباط الإبل . ويذكرون عن حلقة الشيخ أرباب الخشن أنها كانت تشتمل على ألف طالب من الفونج إلى البرنو غربا . وأسهم بعض المشايخ فى توسيع دائرة جماعاتهم الصوفية مثل الشيخ عبد الله الحلنقى إذ يذكر ود ضيف الله عنه أنه كان يتنقل بين « أبو حراز »

وإقليم التاكا فى شرقى السودان ، وحظى عند العرب والفونج . وكان الشيخ ابو سرور الفضلى يتخذ مركز دعوته فى الحلفاية شمالى الخرطوم مدرسا العقائد فى خلواته ، ثم ينتقل إلى دارفور فى أقصى الغرب ويدرس فيها لطلابه أو مريديه ثم لا يلبث أن يهاجر إلى دار صليح .

ويذكرون عن الشيخ العبيد أنه كان يتخذ قريتين مركزًا لدعوته ، وفيهما بنى مسجدين وخلواتهما وهما : النخيرة وأم ضبان ، وكان يقيم فى الأولى فصلى الخريف والشتاء ثم ينتقل إلى أم ضبان وظل على هذه الحال إحدى وعشرين سنة . وكان للشيخ عبد الرحمن بن جابر ثلاثة مساجد : مسجد فى دار الشايقية ومسجد فى كورتى ومسجد فى الدفار ، وكان يقرىء فى كل مسجد أربعة شهور . وقد يرحل الشيخ بأهله وبعض مريديه من موطنه إلى موطن آخر لبثّ دعوته الصوفية فيه ، كما صنع الشيخ محمد بن دفع الله فى رحيله بأهله من أبيض ديرى شمالى الخرطوم إلى غابة رفاعة فى وسط إقليم الجزيرة ، وأقام بين عرب رفاعة سبع عشرة سنة .

(ب) المرأة ومكانتها فى التصوف

لم نعرض – حتى الآن – للمرأة السودانية وصلتها بالتصوف ، وكان لها غير قليل من المكانة الروحية والاجتماعية فى عهد الفونج ، ويذكر ود ضيف الله أن فاطمة بنت سالم كانت واسعة الثراء وكان عبيدها تجار الهند والريف . وكان النساء فى غربى السودان يشاركن الرجال فى جميع أحوالهم ماعدا الحروب ، وبالمثل فى قبيلة الرباطاب إذ كانت المرأة فيها تنوب عن الرجل فى التعزية ، وكان لها نفوذ واضح فى حفلات تنصيب الملوك بغربى السودان . ويدل بصفة عامة على ما كان للمرأة من سيادة فى الأسرة استمرار انتظام الانتساب إليها فابنها ينتسب إلى خاله يقول المقريزى عن البجة شرقى السودان إنهم يورثون ابن البنت وابن الأخت دون ولد الصلب ، وكان يفضَّل فى النوبة ابن الأخت على الابن فى وراثة الملك ، وتأثر بهم فى ذلك عرب جهينة حين اختلطوا بهم ، وكان ذلك شائعا فى بعض جهات دارفور وكردفان ، وهو بقية فى السودان من طور سيادة المرأة فى الأسرة إذ كان الرجل فى بدء الحياة الإنسانية معرضا للخطر لقيامه بصيد الحيوانات الوحشية وبالحرب وكانت هى المسئولة عن الأولاد ، وقد أبطل الإسلام نظام الأمومة ودعا إلى الأخذ بنظام الأبوة فى الانتساب والميراث قائلا : ﴿ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله﴾ .

ولعل فى ذلك كله ما يدل على ما كانت تحظى به المرأة فى عهد الفونج من مكانة اجتماعية ، ولذلك كان طبيعيا أن تحضر دروس العلماء وحلقات الشيوخ ، ويدل على عنايتها بذلك عناية كبيرة ما ذكره ود ضيف الله عن حلقة الشيخ حمد ود أمريُم من أن النساء اللائى كن يحضرنها وأخذ عليهن العهد وأصبحن من أتباعه كُنَّ أكثر من الرجال أضعافا مضاعفة ، وأكثرهن من

فزارة ، وهى قبائل كثيرة كانت تنتمى إلى جهينة . ويكفى هذا الخبر للدلالة على أن المرأة السودانية شاركت بقوة فى انتشار التصوف فى البلاد ، وكانت تحضر حلقات الذكر الصوفى ، وكثيرا ما كانت تقوم امرأة – كما يقول ود ضيف الله – فتنشد والرجال يذكرون الله على إنشادها وصوتها ، والنساء من خلفها وقوف يستمعن إليها وينظرن إلى أزواجهن وأقاربهن ، وقد ينشد رجل والنساء يسمعن إليه مثل الرجال .

(جـ) التصوف والتربية الخلقية والدينية

كان لكل طريقة صوفية « وِرْد » يقرؤه أتباعها صباحا ولها مجالس ذكر يجتمع له أتباعها على الأقل ليلة كل أسبوع . ويذكر الرجال الله فى صفين متقابلين ومنشد أو منشدة ينشدان أشعارا تزيد الذكر حماسة . وكان الشيخ يأخذ على من يريدون الانتماء إلى طريقته عهدا على أن يقوموا بأداء فرائض الإسلام ونوافله وعبادة الله والتمسك بتعاليم كتابه وسنة رسوله ومراقبته فى السر والعلن ومجاهدة النفس ودفعها إلى الفضيلة والعمل على كل خير . وبذلك كان التصوف نوعا من التربية الخلقية المثلى فضلا عن التربية الدينية . وكان بعض الشيوخ حين يأخذ العهد على التابع أو المريد الجديد يفصِّل له المنهج الذى ينبغى أن يتقيَّد به ولا يعدل عن أى واجب فيه ، ويعرض ود ضيف الله تفصيلا لمنهج العهد الذى كان يلزم به حمد ود أمريم أتباعه ومريديه يقول :

« كان يأمر كل من أتاه وتاب على يديه أن يصحح توبته بشروطها ، وهى الندم على ما فات من تضييع فرائض الله من مثل الصلاة والصيام والزكاة وغيرها مع الإخلاص لله تعالى فيما يفعل وترك الرياء والزنا والكبر والحسد والغيبة والنميمة والعُجْب ، ولا يسعى بقدميه فيما لا يحل له ، ولا يسمع بسمعه ما لا يحل له ، وينهاه عن مخالطة الخلق المغتصبين وأكل طعامهم وأكل طعام المستغرقين للذمم . ويقول إن ذلك هو السنة التى سنها رسول الله ﷺ . وكان يأمر كل من تاب على يديه أن لا يزوج ابنته – أو من تعهد له بزواجها – من فاسق أو آثم كالحلاَّف بالطلاق والمغتصب وآكل الربا وغير ذلك . ونهى عن مخالطة الرجال مع النساء ، وأمر بغض البصر .. وكان إذا جاءه أحد لتلاوة القرآن يقول له لا تجوز لك قراءته وأنت جاهل بالفرائض وما فرضه الله عليك من أحكام الوضوء والصلاة . وكان يأمر كل من تاب على يديه وعنده مال مغصوب أن يتصدق به ، ويأمره بالصيام حتى يذهب اللحم الذى رُبِّىَ بالحرام ، ويأمر تارك الصلاة والصيام بقضاء جميع ما فاتهما . ويأمر تابعه بمواصلة ذوى الأرحام وأن لا يتكلف للأضياف بل يقدم لهم ما فضل من نفقته ونفقة عياله . وعلى مريده أن يصلى الأوقات الخمسة معه ويشترط ذلك على خدمه وعبيده ونسائه . وكان جيرانه شكر الله وعبد الكافى والفقيه محمد ولد كوريب من شدة متابعتهم له إن قال لهم : انقلوا الجبل فإنهم ينقلونه » .

وإنما ذكرنا هذا العهد كاملا لندل على ما أتاح التصوف لأهل السودان من تربية دينية وخلقية قويمة . وحقا لم تكن كل العهود تتشدد هذا التشدد ولكنها على كل حال كانت تلزم مريديها بسلوك دينى قويم فضلا عن الأوراد والأذكار كما كانت تلزمهم بسلوك خلقى واجتماعى سديد فى العلاقات والمعاملات . وتسربت على ألسنة بعض شيوخ التصوف بعض ما كان يردده متصوفة بعض البلدان الإسلامية من مثل القطب والأوتاد والنجباء والنقباء ، وأيضا عن الولاية وكرامات الأولياء من المتصوفة ، ويحكى ود ضيف الله عن الشيخ إدريس ود الأرباب أنه قال : « درجات الأولياء ثلاثة : كبرى ووسطى وصغرى ، فالصغرى أن يطيروا فى الهواء ويمشوا على وجه الماء وينطقوا بالمغيبات ، والوسطى أن يعطيه الله الدرجة الكونية إذا قال للشىء كن فيكون والكبرى درجة القطبانية » . وهى شعوذة ، وقد تكون قولا نُسب إلى الشيخ ولم يقله . ويردد ود ضيف الله فى حديثه عن الصوفية ذكر الملامتية ، وهى فرقة صوفية خراسانية كانت تتستر – فى زعمها – بفعل أشياء تغض من تصوفها وتجعل الناس يتلومونها وينكرون عليها ادعاء التصوف » . وهى فرقة ضالة ، ومن رحمة الله بأهل السودان أنه لم يظهر بينهم من اعتنق مبادىء هذه الفرقة سوى محمد الهميم الذى زاد فى زواجه بالنساء على المقدار الشرعى المسموح به وهو أربع وليس ذلك فحسب فإنه جمع بين الأختين » وهو لا يعد بذلك من الملامتية إنما يعد خارجا على الإسلام وأحكامه وأوامره ونواهيه . وربما كان ما ذُكر عن إسماعيل صاحب الربابة من أنه كان من الملامتية صحيحا . على كل حال لم تشع مبادىء هذه الفرقة فى التصوف السودانى وظل تصوفا سنيا منحرفا عن شعوذات المتصوفين المتأخرين ، وظل يغذى أهل السودان بتربية دينية وخلقية واجتماعية قويمة .

(د) طرق صوفية جديدة

تأخذ دولة الفونج فى الضعف منذ أواسط القرن الثامن عشر الميلادى ويرى محمد على خديو مصر الاستيلاء على السودان ويرسل إليه حملة سنة ١٢٣٦ هـ/١٨٢٠ م ويستولى عليه كما مر بنا فى الفصل الماضى ، ويحول الجند قرية الخرطوم إلى مدينة كبيرة وتصبح عاصمة السودان فى العهد العلوى وعرف محمد على مدى ما للطرق الصوفية من سيطرة على الشعب السودانى وحياته ، فشجع الطرق الصوفية بمصر على نزول بعض دعاتها فى السودان ، من ذلك تشجيعه أصحاب الطريقة السعدية ، وهى من فروع الطريقة الرفاعية البغدادية الناشئة فى القرن السادس الهجرى كما مرَّ بنا ، وشجع أصحاب الطريقة الرحمانية أو البدوية المنسوبة إلى أحمد البدوى وأصحاب الطريقة البرهانية المنسوبة إلى إبراهيم الدسوقى . واشتهرت بمكة حينئذ طريقة أحمد بن إدريس الفاسى المتوفى سنة ١٨٣٥ وأرسل إلى السودان قبل وفاته أحد أتباعه المسمى محمد عثمان الأميرغنى ، وأخذ ينشر طريقة شيخه فى السودان الشمالى من وادى حلفا

إلى دنقلة ، وتمَّ له ذلك فرأى أن يذهب إلى كردفان ونجحت دعوته هناك . وشاعت فى السودان الطريقة السمانية . ويبدو أن دعاة صوفيين مختلفين نزلوا فى السودان أثناء القرن التاسع عشر للدعوة إلى طرقهم ، كما يقال إن الطريقة التيجانية دخلت مدينة بربر فى السودان على يد داعيتها محمد المختار .

ومن المؤكد أن هذه الطرق الصوفية وما تكوّن حول كل طريقة وشيخها من جماعات اتسعت لكثير من القبائل عملت على إضعاف العصبيات القبلية وأحلت محلها روابط الطرق الروحية الصوفية التى ربطت بقوة بين أفراد الشعب السودانى من عرب وغير عرب ، ونشرت الإسلام فيما بقى من جيوب وثنية بالسودان فى جبال النوبة ، وبدون ريب سادت روح الإخاء والمودة بين أبناء الطريقة الصوفية . وكانت هناك قرى تنتسب إلى شيخ واحد كقرية العيلفون التى كانت تنتسب إلى إدريس ود الأرباب ، وقد نزلها وسكنها لعهده سودانيون لا يحصون من الشرق والغرب ووادى النيل بل نجد مدينة تدين بطريقة الشاذلية الصوفية هى مدينة الدامر التى دعا فيها الشيخ حمد المجذوب إليها وجاءه مريدوه من دارفور وكردفان وجميع أنحاء السودان وأصبح سكان المدينة يتألفون من هؤلاء المريدين . ومعنى ذلك أن قيام الطرق الصوفية فى زمن دولة الفونج وانتشارها فى السودان من حينئذ عمل على إضعاف ما كان به من عصبيات قبلية ، وسادته روح صوفية عامة جمعت بين كل أفراد الطريقة الصوفية على البر والتعاون والرحمة والمودة . غير أنه مع مر الزمن أخذت هذه الطرق تتنافس وأخذت كل طريقة تزعم أنها خير من أختها وأنها هى وحدها التى تسير على الصراط المستقيم ، وانتهى ذلك بالطرق الصوفية إلى أن تصبح من عوامل الفرقة والتشتت بعد أن كانت -طويلا - من عوامل الألفة والوحدة .

(هـ) دعوة المهدى ومبادؤها الستة

لا نصل إلى سنة ١٨٧٠ للميلاد حتى يظهر المهدى محمد بن عبد الله فى جزيرة أبا فى النيل الأبيض كما مر بنا فى الفصل الماضى وأخذ يكاتب مشايخ الطرق وبعض العلماء بأنه المهدى المنتظر والتف الناس حوله واتسعت دعوته ، فأرسلت إليه الحكومة قوة فقهرها ، وترك جزيرة أبا ونزل فى جبل قدير بمنطقة تقلى ، ووجه إليه مدير فاشودة قوة فقضى عليها كما قضى على جيش بقيادة يوسف الشلالى ، وأتاحت له هذه الانتصارات أنصارا كثيرين ، ولم يلبث أن استولى على مدينة الأبيض سنة ١٣٠٠ هـ/١٨٨٣ م وتعاظم شأنه وكثر أنصاره وجاءوه من كل أنحاء السودان ، وأرسلت حكومة الاحتلال الإنجليزى لمصر قوة بقيادة أحد قوادها فأبيدت إبادة تامة ، واستسلم له سلاتين حاكم دارفور فى نفس السنة ، وحاصر الخرطوم ودخلتها جنوده فى أواخر يناير سنة ١٨٨٥ للميلاد واتخذ قرية أم درمان عاصمة ، ودان له السودان

جميعه ، وهاجر الناس إلى أم درمان من كل الأنحاء لمبايعته وإعلان اعتناق دعوته ، ولم يلبث أن توفى فى شهر يونية سنة ١٨٨٥ .

ونستطيع أن نتبين مبادىء دعوته من خلال منشوراته ، ومن أهم المبادىء التى دعا إليها أتباعه ومريديه الزهد فى متاع الدنيا وكان ينصّ على ذلك فى بيعة كل مبايع له ، إذ يقول فى بيعته : « بايعناك على زهد الدنيا وتركها والرضا بما عند الله » ويشرح هذا المبدأ مبينا أن عدم الأخذ به عند الملوك والأغنياء يشغلهم عن الدين والاهتداء بما جاء به الرسل ، يقول : « وأما الملوك والكبراء وأبناؤهم فصار شغلهم – عن الإنابة إلى الله والتلقى عن الرسل والمرشدين – بالجاه والمال والعز والثناء وحسن الصيت فلم يتركهم ذلك لأن يتنوروا بنور الحق لأن القلب صار ممتلئا بهذه الفانيات فلا محل فيه لقبول الباقيات ، وصار حرمانهم من الخير فيما يظنون أنه متعة لهم ، وإذا أراد الله بعبده خيرا فرغه من ذلك الخسيس » .

والمبدأ الثانى فى دعوة المهدى العمل بالدين والشريعة المحمدية والخضوع لأوامر الله ونواهيه وأداء فروض الدين ونوافله والإخلاص فى عبادته يقول فى منشوراته : « لا نعمة إلا نعمة الدين ، ولا كرم إلا كرم التقوى ، ولا حسب إلا لامتثال لأمر الله والتواضع حتى يكون الشخص بالنسبة إلى آحاد عباد الله كواحد منهم كما كانت حالة الصحابة .. فإن المؤمنين كاليدين تغسل إحداهما الأخرى » . وهذا المبدأ أهم مبادىء دعوته لأنه كان يريد إقامة مجتمع إسلامى كبير ، ويصرّح بذلك لأتباعه ، بل دائما يكرره كقوله لهم : « إنى قد وليت عليكم بولاية الله ورسوله لإقامة الدين ، وجئتكم داعيا إلى الله ومبلغا عنه ما حملته إليكم : اتبّعوا آثار من سلف من المهتدين السابقين على نهج سيدنا محمد ﷺ .. وإنما قصدنا منكم المعاونة فى تقويم الدين ، وإنى – فى ذلك – كواحد منكم » . والمهدى – بذلك – كان يريد أن ينشىء مجتمعًا إسلاميًا جديدًا على أساس قويم من الدين ، وكأن ثورته كانت ثورة إصلاح دينى لبناء دولة إسلامية كبرى تعود بالعالم الإسلامى إلى حياته الأولى : حياة التقوى والعبادة الصحيحة والأخوة فى الدين التى هى – فى رأى المهدى – أقوى من الأخوة فى الأبوين . ولم يقم المهدى فى دعوته أى اعتبار لشىء سوى الدين الحنيف ، فلا اعتبار لنزعة قومية ولا لنزعة عنصرية ، ومن أكبر الأدلة على ذلك أنه أرسل إلى الضباط الإنجليز وجنودهم منشورا يقول فيه : « إنكم إذا تدبرتم بعقولكم وتفرَّستم فى قدرة خالقكم .. علمتم أن مخالفته شنيعة ، ولا ينبغى لكم إلا امتثال أمره واجتناب نهيه والهروب منه إليه .. فهيًا إلى ذلك فإن أسلمتم فلكم أمان الله ورسوله وأمان العبد لله وتكونوا من ضمن أنصارنا » . فالمدار فى دولة المهدى إنما هو على التمسك بالدين ، ولا فرق بين عربى وغير عربى ولا بين سودانى وأوربى . ومما يدل على أن الأساس الدينى فى الدعوة كان كل شىء ما يقوله نعوم شقير فى الجزء الثالث من كتابه :

« تاريخ السودان القديم والحديث » . من أن المهدى جعل أتباعه مراتب بحسب تاريخ دخولهم فى دعوته الدينية واعتناقهم لها ، فالمرتبة الأولى لأنصاره الذين التفوا حوله قبل إعلانه المهدية ، وهم أبكاره ، والمرتبة الثانية لأنصاره الذين آزروه فى جزيرة أبا فى النيل الأبيض ، والمرتبة الثالثة لأنصاره الذين هاجروا إليه وهو فى جبل قدير بتقلى ، والمرتبة الرابعة لأنصاره الذين هاجروا إليه فى الأبيض ، ثم باقى الأنصار وهم أيضا طبقات بحسب أسبقيتهم فى اعتناق دعوته .

والمبدأ الثالث فى دعوة المهدى هو الأخذ بالبساطة فى الحياة ومطاعمها ومشاربها ونبذ ما أدخله التيار التركى والأوربى فى الحياة المادية الحضارية لأهل السودان فى العادات والمآكل والمشرب والملبس والأفراح والمآتم . وهذا المبدأ يتفق فى وضوح مع مبدأ الزهد والتقشف إزاء المتاع الدنيوى ، وقد أراد به أن يحمى البلاد من ترف الحضارات الأجنبية .

والمبدأ الرابع فى دعوة المهدى نبذ أتباعه لجميع الطرق الصوفية المنتشرة فى السودان ، وبذلك حلَّ كل الطرق الصوفية ببلاده ولم يعد لها شيوخ ولا أتباع ينتمون إليها ، ولا عاد بينها تنافس مقيت ، كل يزعم أن طريقته هى طريقة الهدى السديدة وأن الطريقة أو الطرق الآخرى ضالة انحرفت عن طريق الرشاد القويم ، وبذلك لم تعد فى السودان طريقة ولا دعوة دينية إلا دعوة المهدى وما وضعه لها من مبادىء .

ومبدأ خامس فى دعوة المهدى هو نبذ كتب النحل الدينية وكتب فقهاء المذاهب الأربعة المشهورين لأبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل وما بها من كثرة المسائل الفرعية ، مما لا يفيد فوائد مباشرة فى فهم أركان العقيدة الإسلامية ، وقد استحالت هذه الكتب على مر الزمن إلى مجلدات تلو مجلدات وشروح تلو شروح يغرق المسلم فى لججها وخضمها الزاخر ، ولا يكاد يتبين نور الدين ، إذ حجبوا عنه الكتاب والسنة ، وزجوا به فى هذا المحيط الواسع من كتب تعد بالآلاف تتناول مسائل متفرعة لا حدَّ لها ولا حصر ، ويقول من الواجب إهمالها ووضع مذهب اجتهادى جديد فى الفقه والعقيدة . ويشعر من يطلع على هذا المبدأ فى دعوة المهدى أنه ربما كان متأثرا فيه بدعوة المهدى ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين فى المغرب والأندلس إلى نبذ كتب المذاهب الفقهية الأربعة الكبرى لما بها من كثرة الفروع والعلل ، ولم يلبث خليفتاه يوسف بن عبد المؤمن وابنه يعقوب أن أحرقا أحمالا من هذه الكتب .

ومبدأ سادس هو دعوة المهدى إلى الهجرة إلى المواضع التى اتخذها مراكز لدعوته اقتداء بهجرة الرسول ﷺ وأصحابه ، وسمَّى أتباعه بالأنصار اقتداء بتسمية الرسول لأهل المدينة بالأنصار ، وحرَّم الطرق الصوفية كما أسلفنا وحرَّم على أنصاره أن يسموا أنفسهم الدراويش .

ويذكر الدكتور عبد المجيد عابدين طائفة كبيرة من السنن التى سنّها المهدى فى المجتمع السودانى ، فمن ذلك إبطال الرتب والألقاب الرسمية وغير الرسمية ، وأقام الحدود الشرعية على شارب الخمر والزانى والسارق ، وأبطل السحر وكتابة الأحجبة والصراخ على الميت ، وخفض قيمة المهر إلى عشرة ريالات وثوبين للبكر وخمسة ريالات وثوبين للثيِّب ، وجعل وليمة العرس طبقا من اللبن وآخر من البلح ، ومنع زيارة قبور الأولياء ، ووجَّه الناس إلى العناية بكتاب الله والسنة النبوية .

ودان له السودان جميعه فى يناير سنة ١٨٨٥ وأعلن الإنجليز إخلاءه ، وقُدِّرَ له أن يتوفى سريعا فى سن الحادية والأربعين بشهر يونية سنة ١٨٨٥ للميلاد فلم يرافق انتصارَه الكبيرَ ولا دعوتَه طويلا ، ولم يكن لخليفته التعايشى علمه فأخذت الدعوة المهدية تضعف وقاد كتشنر حملة مصرية فى أغسطس سنة ١٨٩٧ لفتح السودان واستطاعت فتحه والقضاء على التعايشى سنة ١٨٩٨ وقام فى السودان حكم ثنائى مصرى إنجليزى ، وعادت الطرق الصوفية إلى نشاطها قبل زمن المهدى بل ربما ازداد بعضها قوة ، وتحول أنصار المهدى إلى طائفة دينية كبيرة تواجه الطرق الصوفية .

٢

الثقافـــة[١]

(أ) كتاتيب – زوايا – مساجد

عرفت السودان مبكرة الكُتَّاب كما عرفته الأقاليم الإسلامية المختلفة فى كل قرية ومدينة وتجمُّع بدوى للمسلمين وقبائلهم التى نزلت السودان على مر العصور ، فكانت الكتاتيب تبنى ملحقة بالمساجد أو منفصلة أو يتخذ مسلم داره لتحفيظ القرآن الكريم الذى يعد حفظه أو على الأقل حفظ آيات كثيرة منه فريضة على كل مسلم ، ويطرد ذلك طوال الحقب الإسلامية . وعادة كان ذلك يستغرق من الصبى سبع سنوات أو تقل أو تزيد حسب قدرته على حفظ القرآن جميعه ، وكان يكتب كل يوم ما يمليه عليه الشيخ أو ما يكتبه من مصحف ، وبين يديه محبرة وعود رفيع مدبَّب يكتب به واجبه اليومى ، حتى إذا حفظه سمعه منه الشيخ ، وقد يسمع منه جزءًا مما حفظ من القرآن لتثبيته فى ذهنه .

---

(١) انظر فى الثقافة بالسودان طبقات ود ضيف الله وكتاب التربية فى السودان لعبد العزيز عبد المجيد وتاريخ الثقافة العربية فى السودان لعبد المجيد عابدين والثقافة العربية فى السودان المعاصر لمحمد فوزى مصطفى عبد الرحمن وتاريخ السودان القديم والحديث لنعوم شقير والسودان عبر القرون لمكى شبيكة ومناهج الألباب المصرية لرفاعة الطهطاوى .

وبجانب الكتّاب كانت هناك خلوات صغرى أشبه بالكتاتيب ، وقد تكون ملحقة بالمسجد وقد تكون منفردة ، وهى أيضا لتحفيظ القرآن الكريم ، وقد يتخذها بعض المتصوفة للعبادة والنسك ، والأكثر أن تكون كتّابا ، وكانت الناشئة فى دارفور تذهب إلى الكتاتيب والخلوات فى الثلث الأخير من الليل ومعها حطب توقده ، وتأخذ فى قراءة القرآن وكتابته وحفظه على ضوء ناره ، كما يقول عمر التونسى فى الحديث عن دارفور برحلته إلى السودان ، لأن الناشئة هناك كانت تُشْغَلُ نهارا برعى الغنم والبقر .

وبعد حفظ الصبى للقرآن الكريم ينتقل إلى حلقات الدراسة بالمسجد أو بالزاوية ، وكانت الزاوية تعنى بجانب العلوم الدينية ، بدراسات التصوف وكتب الصوفية . أما المسجد فقلما يعنى بهذه الدراسات إنما يصب عنايته على علوم الشريعة وعلوم العربية وعلم الكلام والمنطق ، وعرفت السودان المسجد مبكرة ، إذ ينصّ عبدالله بن سعد بن أبى سرح فى معاهدته لأهل النوبة فى عهد الخليفة عثمان على وجود مسجد بديارهم وما يجب عليهم من رعايته وخدمته وإضاءته . وفى القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى بنى العرب القاطنون على النيل الأزرق مسجدا فى سوبا عاصمة علوة : المملكة المسيحية . ولابد أن مساجد كثيرة بُنيت مع انتشار الإسلام فى السودان وتغلغل القبائل العربية هناك . وكانت فى دارفور مساجد كثيرة ، إذ كان فى كل بلدة مسجد وقد يكون بها جامع ، وكانت الناشئة تتعلم فيه الكتابة وتتلو القرآن وتحفظه ، ولكل مسجد وجامع عالم يشرف على حفظ القرآن . ولَصْق المسجد والجامع خلوات للطلاب يحفظون فيها القرآن ويتعلمون أحيانا العلوم الشرعية ولكل مسجد وجامع مال من السلطان ينفق عليه وعلى طلابه وعلى عالمه ومدرسيه . والمسجد من قديم بجانب استخدامه لأداء الفرائض والنوافل كان يستخدم لنشر العلوم الدينية وعلوم العربية ، وكان الشيخ يجلس على رأس حلقة ، ويجلس التلاميذ من حوله فيما يشبه نصف دائرة . وليس هناك طريقة واحدة فى التعليم يلتزم بها الشيوخ فقد يملون من الذاكرة والطلاب يقيدون ما يملونه ، وقد يقرأ الشيخ – أو أحد طلابه – فقرة فى كتاب ثم يتناولها بالشرح والتوضيح ، وقد يلقى على طلابه محاضرة مكتوبة .

(ب) حركة علمية نشيطة فى عهد الفونج

تظهر فى السودان حركة علمية نشيطة طوال عهد دولة الفونج ، وقد أرّخ لها ود ضيف الله المتوفى سنة ١٢٢٤ هـ/١٨١٠ م فى كتابه الطبقات فى خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء فى السودان ، وفيه ترجم لأكثر من مائتين وخمسين من أعلام الشريعة والعربية والتصوف ، وذكرناه مرارا وتكرارا فى حديثنا عن المجتمع السودانى وما ساد فيه من نزعة صوفية ، وبالمثل يمدنا بمعلومات كثيرة عن الدراسات الدينية وما نزل

ديار السودان من علماء العالم الإسلامى ومن السودانيين الذين درسوا فى الأزهر بالقاهرة وفى مكة والمدينة .

وكانت الطريقة المتبعة لتخريج الطالب إذْنُ شيخه له برواية ما سمعه منه ، وقد يكتب إجازة له فى نهاية المصنف الذى أذن له بروايته ، وقد يفردها ، وكانت هذه الإجازة تقوم مقام الشهادة النهائية التى يظفر بها الطالب فى عصرنا . ويسوق ود ضيف الله صورة إجازة منحها الشيخ على الأجهورى شيخ الإسلام بالقاهرة للشيخ عبد الرحمن بن إبراهيم السودانى كتبها بخطه ، ويقول فيها بعد حمد الله والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم : « قرأ علىّ الشاب الفاضل والنحرير الكامل الشيخ عبد الرحمن بن إبراهيم الكبابى نسبا البربرى بلدا عقيدتى التى ألفتها فى أصول الدين والتصوف وشَرْحها قراءة جيدة نافعة إن شاء الله ، وحضر قراءتى فى مختصر العلامة الشيخ خليل فى فقه المالكية فى نحو نصف الكتاب المذكور قراءة بحث وتحقيق دلت على نباهته وفقهه بالكتاب المذكور . وقد استخرت الله وأجزته بما ذُكر وبجميع ما يجوز لى روايته بشرطه سائلا منه أن لا ينسانى من الدعاء بسعادة الدارين .. وكتب فى آخر ذى الحجة ختام سنة ثلاثين بعد الألف » . ويلى ذلك إمضاء الشيخ على بن محمد المدعو بزين بن عبد الرحمن الأجهورى المالكى .

وكان ملوك الفونج ونوابهم فى الولايات كالشيخ عجيب فى العبدلاَّب وولاة علوة يغدقون على العلماء . ووثَّق الملوك العلاقة بينهم وبين علماء الأزهر بما كانوا يرسلون إليهم من هدايا ، واشتهر الملك بادى الأول (١٠١٩ هـ/١٦١١ م – ١٠٢٤ هـ/١٦١٦) بكثرة ما كان يرسله إليهم من هدايا مع سفيره أحمد علوان ، وأهدوه بدورهم قصائد مديح متعددة ، أنشد منها نعوم شقير فى الجزء الثانى من كتابه « تاريخ السودان القديم والحديث » قصيدة للشيخ عمر المغربى . وكان الشيخ عجيب شديد العناية بالعلماء فى إمارته ، وتشجيعا لطلاب مشيخته وطلاب دولة الفونج والسودانيين عامة حبَّب إليهم أن يرحلوا فى طلب العلم إلى الأزهر ، وبنى لهم فيه رواقا بجانب رواق الشام ورواق المغاربة ، وبنى لهم رواقا آخر فى المدينة لينزلوا فيه ويأخذوا العلم عن الشيوخ هناك .

(جـ) سودانيون أزهريون وعلماء مصريون

تخرج فى الأزهر لعهد دولة الفونج سودانيون كثيرون ، ومن أعلامهم الشيخ محمود العركى فى سنار العاصمة ، وكان قد رحل إلى مصر واختلف إلى شيوخ الأزهر وخاصة الشيخ شمس الدين اللقانى إمام المالكية المتوفى بالقاهرة سنة ٩٣٥ وعمل بعد عودته على نشر المذهب المالكى فى دولة الفونج ، ويقول ود ضيف الله إنه اول من نشر علوم الدين فى أنحاء النيل الأبيض إذ لم يجد فيها مدرسة علم ولا قرآن . وكان الرجل يطلق زوجته ويتزوجها غيره فى

نفس اليوم بدون العدَّة الشرعية ، فأبطل تلك العادة المحرمة ، وحمل الناس على حكم الشريعة وأن تنتظر المطلقة قبل زواجها الثانى حتى توفِّى عدَّتها . وأنشأ الخلاوى لتحفيظ القرآن الكريم وتدريس علوم الدين ، وبذلك أشبهت الخلوة عنده مدرسة ، وكان له ما بين الخرطوم وأليس الكوة خمس عشرة خلوة أو مدرسة .

وممن تخرج فى الأزهر أولاد جابر الأربعة : إبراهيم وعبد الرحمن وإسماعيل وعبد الرحيم ، درسوا على الشيخ المالكى البنوفرى تلميذ عبد الرحمن الأجهورى ، وهو بدوره تلميذ شمس الدين اللقانى ، وكانوا أيضا من أسباب انتشار المذهب المالكى فى السودان ، وخاصة إبراهيم الذى نزل جزيرة ترنج ودرَّس فيها مختصر خليل ورسالة ابن أبى زيد القيروانى فى الفقه المالكى ، ويقول ود ضيف الله إنه أول من دَّرس مختصر خليل ببلاد الفونج وشُدَّت إليه الرحال ، ومن تلاميذه أربعون صاروا أعلاما ، منهم الشيخ الزين ولد صغيرون . وصار كثير من تلامذته شيوخًا للإسلام فى بلدان مختلفة ، ويقول ود ضيف الله : فقهاء البلاد كلها إلى دار صليح تلامذته وتلامذة تلامذته ، ومن تلامذته المشهورين الشيخ أرباب الخشن ، وكان الطلبة فى حلقته يبلغون – كما يقول ود ضيف الله – ألف طالب ونيفا من دار مملكة الفونج إلى دار مملكة برنو على نهر النيجر . وممن تتلمذ للبنوفرى فى الأزهر أستاذ إبراهيم بن جابر المار ذكره الشيخ عبد الرحمن حموتو الخطيب ورفيقه الشيخ محمد سرحان ، ويذكر ود ضيف الله أنه كان يقول « محمد يصلح للتدريس لكونه يسأل عن تحقيق نصوص المتن ، وعبد الرحمن يصلح للفتوى لكونه يسأل عن معانى الشراح ويراجع آراءهم وفتاواهم . وممن تلقى العلم فى الأزهر من أعلام السودانيين الشيخ حمد المجذوب وكان فقيها صوفيا ، ومر بنا أنه نشر الطريقة الشاذلية فى مدينة الدامر ، وظلت أسرته تقوم بعده على الطريقة الشاذلية ودراسة العلوم الدينية .

ومن العلماء السودانيين الذين تخرَّجوا فى الأزهر الشيخ عمار بن عبد الحفيظ ، عُنى بأن ينهل من حلقات شيوخ العربية الأزهريين ، وعاد إلى السودان وأخذ يدرس لطلابه – كما يقول ود ضيف الله – علوم النحو واللغة والمنطق ، وتتلمذ عليه سودانيون كثيرون كان لهم دور عظيم فى نشر علوم العربية والبلاغة فى أنحاء السودان ، منهم الشيخ عبدالله بن صابون الذى اشتهر ببراعته – كما يقول ود ضيف الله – فى النحو والصرف والمعانى والبيان والبديع وعلم العروض ، وكان شاعرا ماهرا ، ومثله زميله الشيخ على ولد شاقعى ، وكان مثله شاعرا مجيدا .

وكثيرون من علماء مصر البررة رحلوا إلى السودان لتعليم السودانيين شريعة الإسلام وممن ندب نفسه لهذه المهمة – كما يقول ود ضيف الله – محمد بن على بن قدم الكيمانى تلميذ الخطيب الشربينى إمام الشافعية بمصر المتوفى سنة ٩٧٧ هـ/١٥٧٠ م استوطن مدينة بربر إلى

أن توفى بها ، وقد درس عليه شيوخ كثيرون أخذوا عنه علم الفرائض والفقه الشافعى من مثل الشيخ عبدالله العركى والقاضى دشين الشافعى وإبراهيم بن عبودى الذى اشتهر ببراعته فى تدريسه لعلم الفرائض أو المواريث وفيه ألّفَ حاشيته المعروفة باسم الفرضية . ولم يكتب لفقه المذهب الشافعى أن يعم فى السودان ، إنما الذى عم فيه فقه المذهب المالكى للفقهاء المالكية الذين ذكرناهم ممن تلقوا المذهب عن أئمته فى مصر ، ولأن نزلاء السودان من الحجاز والكانم والبرنو وغربيهما ومن الليبيين والتونسيين والمغاربة فى حجهم وتجارتهم كانوا مالكية . فالمذهب المالكى هو الذى شاع وانتشر فقهاؤه بالسودان لعصر دولة الفونج .

ومن كبار فقهاء المالكية المصريين الأزهريين الذين رحلوا إلى السودان فى عصر الفونج الشيخ محمد القناوى تلميذ الزرقانى الإمام المالكى الكبير استوطن مدينة بربر بين ديار الشايقية فى الشمال ثم جزيرة سنار فى الجنوب لأوائل النصف الثانى من القرن العاشر الهجرى ، وبنى فيها مسجده ودرَّس فيه رسالة ابن أبى زيد الفقيه القيروانى والعقائد (فى التوحيد) وعلم النحو وسائر العلوم ، وولى القضاء فنهض به فى عفة ونزاهة » ومن أحفاده الشيخ محمد إكداوى نزيل مدينة شندى جنوبى مدينتى بربر وعطبره ، وفيها درَّس فى الفقه المالكى رسالة ابن أبى زيد القيروانى مثل جده ، ودرَّس النحو وعلم الكلام وعلم الأصول والمنطق ، وكان يجتمع فى حلقته طلاب كثيرون . ومن فقهاء مصر المالكية هناك الشيخ حامد اللين وكان يشتغل بتدريس رسالة ابن أبى زيد القيروانى فى الفقة المالكى ، كما كان يشتغل بتدريس العقائد وعلم التوحيد ، وهو أول من أحضر شرح الزرقانى على مختصر خليل وبالمثل شرح الشبرخيتى المالكى على متن العشماوية .

ومن كبار العلماء المصريين الذين نزلوا السودان واستوطنوا مدينة بربر فيه الشيخ محمد المصرى الذى عنى بدراسة علم التوحيد أو علم الكلام حتى وفاته سنة ١٠٩٥ هـ/١٦٨٤ م وكان محمد بن يوسف السنوسى الجزائرى المتوفى سنة ٨٩٥ هـ/١٤٩٠ م ألف فى علم التوحيد أو الكلام ثلاثة أعمال : العقيدة الكبرى وشرحها والعقيدة الوسطى وشرحها والعقيدة الصغرى وشرحها ، وسيطرت هذه الأعمال فى مباحث علم التوحيد أو الكلام على الباحثين منذ وضعها لا فى الجزائر وحدها بل فى بلاد المغرب ومصر والعالم الإسلامى . وكان الشيخ محمد المصرى يدرس علم التوحيد للشباب السودانى من خلال هذه الأعمال ويفيض فى شرحها ، ويقول ود ضيف الله إن له كتبا شأنها أن تكتب بماء الذهب ، منها شرح للعقيدة الوسطى للسنوسى ، وشرح للعقيدة الصغرى ، وكان السنوسى قد اختصر الصغرى وسماها أم البراهين فشرحها . وكان الشاعر أحمد بن عبد الله الجزائرى فى عصر السنوسى ألف فى العقيدة قصيدة فشرحها وشاعت باسم الجزائرية ، ونجد محمدًا المصرى يشرحها أيضا – كما يقول ود ضيف الله –

ويشرح الأجرومية فى النحو . ولتلميذه الشيخ مكى النحوى الرباطابى شرحان على السنوسية : كبير وصغير .

وما حدث بين الطلاب السودانيين وانتظامهم فى الأزهر للتعليم وانتداب بعض خريجى الأزهر من المصريين أنفسهم لنشر الثقافة الدينية فى ربوع السودان حدث ما يماثله أو يقرب منه بين السودان والحجاز ، فقد كان للسودانيين رواق فى المدينة تنفق الدولة على من ينزل فيه للأخذ عن الشيوخ هناك ، وممن نزله من السودان الشيخ محمد بن عدلان الذى تتلمذ للشيخ عبدالله المغربى هناك ، وعاد إلى أرض الجزيرة فى السودان ، ودرَّس للناس علم الكلام من خلال كتب السنوسى التى ذكرناها آنفا ، ويقول ود ضيف الله إن مدار علم الكلام فى دار الجزيرة أو إقليمها على طلبته وتلامذة طلبته . ويذكر ود ضيف الله عن شيخ سودانى يسمى عمار بن شايقى أنه قرأ فى مكة علوم العربية . ويلم ود ضيف الله بأسماء علماء اليمن الذين نزلوا فى السودان واستوطنوه مثل الفقيهين حمد ولد زروق والشيخ جبارة . ويذكر ود ضيف الله طائفة من علماء المغرب الذين نزلوا فى السودان غير أنه لا يتوقف إزاءهم طويلا لنعرف ما الذى كانوا يدرِّسونه للطلاب فيما عدا التلمسانى ، إذ يقول إنه درَّس لطلابه علم الكلام وعلوم القرآن وتجويده وترتيله . ونظن ظنا أن التلمسانى كان أحد من أشاعوا قراءة ورش المصرى فى دارفور وكردفان ، إذ كانت مصر قد هجرتها من قديم وتمسكت بها البلاد المغربية والأندلس ، وشاعت فيما بعد بالسودان الغربى وبرنو والكانم ، فشيوعها فى السودان إنما هو عن طريق من نزلها من المغاربة أمثال التلمسانى .

وحرى بنا أن نذكر مؤرخين سودانيين مهمين هما ود ضيف الله أو محمد بن ضيف الله الجعلى المتوفى سنة ١٢٢٤ هـ/١٨١٠ م صاحب كتاب الطبقات فى خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء فى السودان وهو كتاب نفيس ترجم فيه – كما ذكرنا – لنحو مائتين وخمسين صوفيا وعالما وشاعرا فى عصر دولة الفونج بسنار ، ولأهميته طبع أكثر من مرة ، وعليه اعتمدت فى دراسة الحياة الصوفية والعلمية أيام الفونج وبالمثل الحياة الاجتماعية وخاصة عن المرأة . ويلى هذا المؤرخ وكتابه فى الأهمية كتاب الشيخ أحمد كاتب الشونة – والمراد بالشونة مخزن الغلال – وهو فى تاريخ السلطنة السنارية والإدارة المصرية ويبدو وأنه كان موظفا فى تلك الإدارة ، فأرَّخ لدولة الفونج فى سنار وللإدارة المصرية فى الخرطوم والسودان .

ولعل فى كل ما قدمت ما يدل على أن دولة الفونج أحدثت فى السودان نهضة علمية حقيقية كان عمادها القرآن الكريم وترتيله وقراءته وتفسيره والحديث النبوى والفقه وما يتصل به من علم الأصول والعربية بعلومها المختلفة . غير أن الدولة ضعفت فى عهدها الأخير مما أتاح لمحمد على ضم السودان إلى مصر ، واستحالت الخرطوم إلى مدينة كبيرة ، وأصبحت عاصمة

للبلاد ، وعرف أن السودانيين شعب متدين ويعتنق مناهج كثير من الطرق الصوفية ، فشجع أصحاب الطرق الصوفية بالقاهرة على النزول به ، وأرسل مع الجيش الذى وجَّه به إلى السودان ثلاثة من صفوة العلماء ، وهم القاضى محمد الأسيوطى الحنفى والشيخ أحمد البقلى الشافعى والشيخ أحمد السلاوى المالكى « ليكون – كما يقول الدكتور عبد العزيز عبد المجيد – لكل مذهب من المذاهب الفقهية الشائعة شيخ يشرف على شئونه ، وحتى لا يُجبَر معتنق مذهب (فقهى) على أن يلجأ فى الفتاوى والأحكام إلى شيخ من غير مذهبه » . وشجع محمد على علماء الأزهر على الهجرة إلى السودان خدمة للشريعة الإسلامية هناك ، وفتح أبواب الأزهر على مصاريعها للطلاب السودانيين ورُتبت لرواق السناريين جراية أو بعبارة أخرى خبز لهم ، وأنشىء رواق لأهل دنقلة ورواق لأهل دارفور ورواق لأهل صليح . وفى أواخر عهد محمد على سنة ١٨٤٧ للميلاد أُنشىء الجامع العتيق بالخرطوم ، وأُريد به أن يكون مثل الأزهر جامعا لأداء فرائض الصلاة ومعهدا دينيا كبيرا يدرِّس فيه جِلَّة من العلماء ، وممن ألقى دروسه ومحاضراته الدينية فيه الشيخ إبراهيم عبد الدافع مفتى الديار السودانية والشيخ الأمين الضرير والشيخ شاكر المفتى والشيخ مصطفى السلاوى والسيد حسين المجدى والشريف المحروقى الشاذلى. ولابد أن نشير إلى أن مصر جعلت المذهب الحنفى المذهب الرسمى للدولة وعلى رأس المحاكم الشرعية قاضيا حنفيا، وعادة يكون مصريا وظل ذلك فى عهد الفترة المهدوية وبعدها إلى سنة ١٩٤٧ للميلاد.

(د) التعليم المدنى الحديث وتوقفه

أخذت تنشأ فى عهد محمد على بالسودان مدن جديدة مثل الخرطوم وبعض مستشفيات ومنشئات عصرية ، وهاجر بعض الطلاب السودانيين إلى القاهرة ليلتحق بالمدارس والمعاهد الجديدة . ويذكر رفاعة الطهطاوى فى كتابه مناهج الألباب المصرية أن محمد على اختار طائفة من ناشئتهم أدخلهم فى المدارس المصرية ليتعلموا مبادىء العلوم ، ثم نقلهم إلى مكتب الزراعة ثم إلى مدرسة الألسن ، وكان قصده من ذلك أن يتذوقوا طعم المعارف التمدنية ، حتى إذا عادوا إلى السودان نشروها فى بلادهم . ويذكر الدكتور عبد العزيز عبد المجيد أن بعثة من الطلاب السودانيين تتألف من مائة طالب سافرو إلى مصر والتحقوا بمدرسة المبتديان .

وإذا صحَّ ذلك تكون مصر قد أخذت بيد السودان لتنهض فيه سريعا نهضة علمية مثل نهضتها ، ومع ذلك لا يذكر لمحمد على أنه أقام مدرسة نظامية فى السودان . وأول مدرسة تنشأ فيه أقامها خليفته عباس إذ أنشأ فيه مدرسة ابتدائية فى الخرطوم وجعل ناظرها رفاعة رافع الطهطاوى ، ونراه فى كتابه مناهج الألباب المصرية يشيد بالسودانيين وملكاتهم الخصبة وحسن استعدادهم للتمدن وللعلم والتعلم ، يقول :

« إن للسودانيين قابلية للتمدن الحقيقى لدقة أذهانهم ، فإن أكثرهم قبائل عربية ، يدل على

ذلك اشتغالهم بما ألفوه من العلوم الشرعية عن رغبة واجتهاد ، ولهم مآثر عظيمة فى حسن التعلم والتعليم حتى إن البلدة إذا كان بها عالم شهير يرحل إليه من البلاد المجاورة من طلبة العلم العدد الكثير والجم الغفير ، فيعينه أهل بلدته على ذلك بتوزيع الطلبة على البيوت بحسب الاستطاعة ، فكل واحد من الأهالى يخصه واحد أو اثنان ويقومون بشئونهم مدة التعلم والتعليم » . ويبدو أن هذه الط[illegible] كانت قديمة منذ عهد دولة الفونج .

وولى سعيد قصير النظر بعد عباس فأغلق المدرسة ، وتولى بعده إسماعيل سنة ١٢٧٩ هـ/١٨٦٣ م فعيَّن موسى باشا حمدى حكمدارا للسودان وأمره بإنشاء خمس مدارس فى عواصم المديريات : الخرطوم وبربر والأبيض وكسلا ودنقلة ، وفتحت كل مدرسة أبوابها لاستقبال مائة تلميذ كى يحصِّلوا – كما يقول الدكتور عبد العزيز عبد المجيد – العلوم والفنون النافعة ، وأنشئت مدرسة سادسة فى سواكن . وأخذت – بعد ذلك – بعض الإرساليات التبشيرية تنشىء مدارس لها فى الخرطوم . وكان لهذه المدارس جميعا أثر واسع فى نشر الثقافة الحديثة بالسودان ، إذ كانت تتأثر بالحضارة الغربية والأفكار الأوربية .

وليس كل ما بين هذا التعليم الحديث فى السودان وبين التعليم القديم فى الخلوات والزوايا والمساجد من فروق تأثره بما فى الغرب من حضارة وأفكار فإنه قام على مناهج محددة فى كل سنة لكل علم ، وعلى مقررات واضحة فى كل مادة مع العناية بتعلم لغة أجنبية ، بخلاف التعليم القديم ، فليس فيه مناهج محددة وليس فيه انتقال من صف إلى صف ، مما يقتضى تدرج التعليم ، بحيث يكون لكل علم فى كل سنة مادة علمية تتلاءم مع سن الناشىء من الوجهة التربوية السديدة .

وعيَّن إسماعيل جعفر مظهر بعد موسى حمدى حكمدارا سنة ١٨٧٣ ، وكان مثقفا ثقافة واسعة بالعلوم الدينية والأدبية ، فبثَّ فى مسائلها جميعا نشاطا واسعا ، إذ فتح مجالسه للعلماء والأدباء يتحاورون معه ويتحاور بعضهم مع بعض فى المسائل العلمية والأدبية ، وأحدث ذلك فى الخرطوم والسودان حركة علمية وأدبية خصبة وأخذ بعض الشعراء ينشرون قصائدهم فى الوقائع المصرية وكانت حينئذ جريدة مصر الكبرى . وبينما الحركة الثقافية الحديثة تنشط هذا النشاط وبينما المدارس الحديثة تخرِّج للإدارة السودانية كل ما تحتاج إليه من الكتاب والمحاسبين وعمال التلغراف والموانىء إذا المهدى يقوم بثورته التى مرت بنا فيغلق كل المدارس ، وينهى عن التعلق بأى صورة من صور الحضارة المادية الأوربية والتركية فى المأكل والملبس والأفراح والأحزان ، فأنصاره ينبغى أن يرفضوا كل ما دخل على حياتهم من حضارة الغرب والترك ويعودوا إلى حياة الفطرة الأولى الإسلامية الخالصة . وبذلك ظلت السودان فى أيامه منذ سنة

١٨٨١ وأيام خليفته التعايشى منذ سنة ١٨٨٥ حتى نهاية أيامه سنة ١٨٩٨ بعيدة عن كل تعليم حديث أو ثقافة حديثة تشوبها الحضارة الأوربية والتركية .

وبانتهاء العهد المهدوى وقيام الحكم الثنائى المصرى الإنجليزى فى السودان عادت الطرق الصوفية إلى نشاطها محاولة بكل ما تستطيع أن تسترد مكانتها التى كانت قد فقدتها . وأصبحت من حينئذ جماعة الأنصار المعتنقين للدعوة المهدية طائفة دينية تقف فى مواجهة الطوائف الصوفية . وعاد مع الطوائف الصوفية تعليم الخلوة والمسجد والزاوية والتحق بعض السودانيين بالتعليم الدينى فى الأزهر .

(هـ) إنشاء معهد دينى وعودة التعليم المدنى الحديث

أنشىء فى جامع أم درمان سنة ١٩٠١ معهد دينى لتدريس العلوم الدينية وعلوم العربية ، وفى سنة ١٩١٢ بُنى له مبنىً مستقل بجوار مسجد جديد بأم درمان ، ووُضعت له نظم ومناهج كنظم ومناهج الأزهر ، وجُعل التعليم فيه على ثلاث مراحل وكل مرحلة أربع سنوات ومع كل مرحلة شهادة ، وهى مرحلة أولى ومعها الشهادة الأولية ، ومرحلة وسطى أو ثانوية ومعها الشهادة الأهلية ، ومرحلة عليا ومعها الشهادة العالمية ، مثل الأزهر تماما ، وتفرعت من هذا المعهد معاهد أخرى فى المدن الرئيسية .

وكان لهذا المعهد أثر بعيد فى السودان إذ أخذ يزداد عدد خريجيه من حملة شهادة العالمية ، وعُيّن كثيرون منهم مدرسين فى وزارة أو مصلحة المعارف وسَدّوا حاجة المدارس الأهلية إلى معلمين للناشئة يدرسون لهم الدين والعربية ، كما سدوا حاجة المديريات من المعلمين فى معاهدها الإقليمية . ولم يكن فى السودان من المدارس النظامية سنة ١٨٩٩ سوى مدرستين حكوميتين وبعض المدارس القروية ، فعمل الحكم الثنائى المصرى الإنجليزى الجديد على إنشاء مدارس أولية ووسطى فنية ، وتأخر إنشاء مدارس للبنات ، وفى سنة ١٩١١ افتتح الشيخ بابكر البدرى المربى السودانى الفاضل مدرسة للبنات فى منطقة رفاعة بالجزيرة ، وأدخل فيها كريماته واقتدت به بعض الأسر ، فأدخلت معهن كريماتهن ، وأخذت مدارس البنات تزداد ، حتى بلغت فى آخر هذا العصر سنة ١٩٢٣ خمسا . ومنذ أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحاضر أخذت الإرساليات التبشيرية تنشط فى فتح المدارس .

وكان أهم حدث فى التعليم المدنى إنشاء كلية غوردون ، وكان كتشنر أول حاكم عام للسودان جمع من السودانيين تبرعات لإنشاء كلية لذكرى غوردون وبلغت – كما أسلفنا – نحو مائة ألف جنيه ، ووضع الحجر الأساسى لها سنة ١٨٩٩ ورُؤى – فى أول الأمر – أن لا يتعدى التدريس فيها المرحلة الابتدائية ، وافتتحت فى أكتوبر سنة ١٩٠٣ وتقدم لها مائة

وخمسون تلميذا بينهم من المصريين والشاميين ٥٨ والباقون سودانيون ، وفى سنة ١٩٠٥ أنشىء بها قسم ثانوى ، مدته أربع سنوات ، مع دراسات خاصة لتخريج المدرسين والمترجمين والمهندسين والقضاة الشرعيين .

وأخذت تنشأ فى الخرطوم والسودان مدارس حكومية وغير حكومية تعنى بالتعليم الحديث وتزويد الطلاب السودانيين بتعلم اللغة الإنجليزية ، ويذكر الدكتور عبد المجيد عابدين عن محمد أحمد محجوب أحد الخريجين الأوائل من كلية غوردون قوله : « لم يكن بد من انتشار آداب اللغة الإنجليزية بين جمهرة المتعلمين من شباب السودان ، وساعد على ذلك نشاط المطبعة الإنجليزية وكثرة إنتاجها فى شتى الفنون والعلوم وفى كثير من أغراض الحياة العامة » .

ولابد أن نلاحظ أنه بجانب عمل المدارس وكلية غوردون فى نشر الثقافة الحديثة أخذ المعهد الدينى فى أم درمان يتسع بالثقافة الدينية الإسلامية ، وتخرج فيه كثيرون عنوا بالأدب العربى وإنماء دراسته فى السودان . ونشط الفكر السودانى بعامة وأخذت ترتسم أمامه مثل عليا فى الحياة والاجتماع ، وتأسس بأخرة من هذا العصر سنة ١٩١٨ بأم درمان ناد للخريجين يمثل الطبقة المثقفة فى السودان ، وأخذ الخطباء يعتلون منابره معبرين عن وعى جديد بشئون الأمة السودانية ومصالحها وشئون السياسة والفكر والثقافة ، وأخذ غير واحد ينادى بالإصلاح الاجتماعى والسياسى ، مما أعدَّ لثورة سنة ١٩٢٤ وهى – فى رأينا – تعد بدء العصر الحديث فى السودان .

الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

١

تعرُّب[١] السودان

عرف السودان الجنس العربى قبل الإسلام بعدة قرون عن طريق التبادل التجارى بين الجزيرة العربية والشاطىء الإفريقى ، ويُظنُّ أن بعض ملوك حمير استولى على أجزاء من هذا الشاطىء أو من أرض الحبشة ، وتؤكد هجرة المسلمين فى بدء الدعوة الإسلامية من مكة إلى الحبشة أن أهل الحجاز كانوا يعرفون الشاطىء المقابل وسكانه من الحبشة والسودان . ولكن ليس هذا هو التعرب الذى نريده ، فنحن لا نريد معرفتهم بالجنس العربى ومتى بدأت ، إنما نريد تكلمهم بالعربية ومتى أصبحوا يُعَدّون شعبا عربيا ، ولم يحدث ذلك إلا بعد إسلامهم وبعد هجرة قبائل عربية كثيرة إليهم .

وكان أول احتكاك بين العرب المسلمين وأهل السودان فى عهد الخليفة عثمان إذ أرسل إليه واليه على مصر : عبد الله بن سعد بن أبى سرح سنة ٣١ هـ/٦٥١ م حملة تغلغلت فى مملكة مقرة الشمالية إلى عاصمتها دنقلة وكانت دولة مسيحية أدخلتها مصر قديما فى الدين المسيحى مثل مملكة علوة جنوبيها والحبشة. وانتصر الجيش المصرى انتصارا حاسما وعقدت بين مصر ومقرة معاهدة كان من بنودها صيانة المسجد الذى بناه المسلمون بدنقلة وخِدْمته وإضاءة السراج فيه ليلا . ونسمع عن عشائر من قبيلة بلىّ وجهينة نزلت فى قبائل البجَّة شرقى السودان ، وبالمثل عبرت عشائر من هوازن البحر الأحمر إليها . ويحدث أن تُغير قبائل البجَّة على أسوان فى عهد المأمون فيرسل إليها حملة تقهرها وتعقد معها معاهدة تنصُّ على أن لا تهدم البجَّة شيئا من المساجد التى بناها المسلمون فى سائر ديارها طولا وعرضا . وبذلك فُتحت الأبواب على مصاريعها لنزول القبائل العربية بين أهل البجَّة ، ونزحت إليها عشائر كثيرة من قبيلة ربيعة

(١) انظر فى تعرب السودان ما كتبناه فى الفصل الأول عن السودان فى العصور الإسلامية ودولة الفونج ، وكتاب تاريخ الثقافة العربية فى السودان للدكتور عبد المجيد عابدين ص ٩ – ٢٦ وتاريخ السودان القديم والحديث لنعوم شقير ودائرة المعارف الإسلامية وكتاب العربية فى السودان للشيخ عبد الله عبد الرحمن الأمين ويعرض بالتفصيل دخول العرب فى السودان على مر التاريخ والطرق التى سلكوها إليه وما شاع فى السودان من العادات العربية وأمثال العرب ولغتهم .

عملت فى مناجم الذهب بوادى العلاقى الممتد من أسوان إلى عيذاب ، واستطاعوا أن يدخلوا فى الإسلام من البجة عشائر معروفة باسم الحدارب ، ويقول المسعودى هم وحدهم الفئة المسلمة فى البجة لزمنه سنة ٣٢٤ هـ/٩٣٥ م ويدل على كثرتهم أن أحد زعماء ربيعة هناك بشر بن إسحق كان يركب فى ثلاثة آلاف من ربيعة وأحلافها من مضر واليمن وثلاثين ألفا من مقاتلة البجّة وكلهم من الحدارب . وكانت لغة أهل البجة حاميّة وتسمى التبداوية ، وكانوا ينتشرون من عيذاب إلى كسلا ، وأخذ الإسلام – ومعه العربية – ينتشر بينهم مع مر الزمن ، ودخلت لغتهم من العربية ألفاظ كثيرة ، ولا يزال بعض البجاويين وخاصة فى الغرب يحتفظون بالتبداوية مع تكلمهم بالعربية ، يقول نعوم شقير عن قاطنى « سواكن » من البجة إنهم يتكلمون البجاوية فى منازلهم ومجالسهم الخاصة، ولكنهم فى المجالس العامة يتكلمون العربية.

وظلت مملكة مقرة النوبية المسيحية تقاوم الإسلام والعروبة قرونا ، وتُغير على ميناء عيذاب المصرى وأسوان فى عهد الظاهر بيبرس ، فيرسل إليها حملة تأديبية ، وتتغلغل فى ديارها حتى دنقلة ، ويفرض عليها ولاءها لمصر وأن يكون ملكها نائبا فى النوبة عن بيبرس ، ويولّى عليها نائبا له ملكا مسيحيا من أهلها وتظل تحاول الاستقلال عن مصر فى عهد قلاوون وتتطور الظروف فى عهد ابنه الناصر ويولّى عليها سنة ٧١٦ هـ/١٣١٦ م ملكا مسلما من نفس الأسرة المالكة . وسرعان ما استولت على مملكة مقرة النوبية قبيلة ربيعة ونشرت بها الإسلام وبذلك انمحت مملكة النوبة المسيحية نهائيا ، وظلت مملكة علوة المسيحية جنوبيها تحاول مقاومة النفوذ الإسلامى إلى أن قضت عليها نهائيا دولة الفونج الإسلامية . ومعروف أن اللغة النوبية إحدى اللغات الحامية فى السودان . ولا يزال أهل بعض مناطقها يستخدمونها فى حياتهم اليومية ، ودخلها كثير من الألفاظ العربية حتى لتبلغ كما يقول الدكتور عبد المجيد عابدين ثلاثين فى المائة من مجموع ألفاظها وكانوا يستعملون معها العربية .

وعوامل متعددة جعلت غربى السودان يعتنق الإسلام ، منها نزول تجار مملكة البرنو والكانم الإسلامية فى أسواق دارفور وكردفان ، ومنها مرور حجاجهم بتلك المنطقة ورؤيتهم لهم وهم يفرشون سجاجيدهم ويصلون داعين الله أدعيات مختلفة ، ومنها هجرة كتلة ضخمة من قبيلة زوارة المغربية المسلمة ومن عرب الشاوية (رعاة الشاة) إلى إقليمى دارفور ووادای فى القرن الخامس الهجرى ، وقد كونوا مملكة إسلامية كبيرة ، كان من ملوكها الملك سليمان وشملت مملكته الكانم ووادای وشطرا كبيرا من دارفور . وكانت تسود فى الغرب لغات حامية وبربرية على ألسنة المهاجرين إلى الغرب من زوارة وعربية على ألسنة الشاوية ونوبية على ألسنة التنجور المهاجرين من دنقلة إلى دارفور . واختلف أهل الغرب ، منهم من يتكلم العربية إلى جانب لغته الأصلية : البربرية أو النوبية أو الحامية بجانب العربية ، ومنهم من يتكلم العربية وحدها مثل سكان قبيلة القمر إلا ما كان من جماعة أبى جوخة .

وواضح أننا لا نصل إلى القرن العاشر الهجرى إلا وقد أخذت أجزاء من السودان تتعرب نهائيا مثل حدارب البجة ، وأجزاء أخرى أخذت تضيف العربية إلى لغتها الأصلية كما فى البجة والنوبة وبعض جوانب الغرب فى دارفور ، ما عدا سكان قبيلة القمر فإنهم تكلموا العربية ونسوا لغتهم الأصلية . وتؤسَّس دولة الفونج فى سنار سنة ٩١٠ هـ/١٥٠٤ م وتعلن أنها دولة إسلامية فى نظمها السياسية والإدارية وأن العربية لغتها الرسمية وكتبت بها وثائقها ، وشجعت العلماء على تدريس الفقه والعلوم الإسلامية والعربية وأخذت تحدث نهضة علمية فى بلادها التى امتدت شمالا حتى الشلال الثالث وشرقا حتى حدود الحبشة والبحر الأحمر وغربا حتى بعض مناطق كردفان وجنوبا حتى منطقة نهر السوباط وبحر الغزال ، فكل هذه المناطق عمت فيها دولة عربية إسلامية – هى دولة الفونج – لمدة ثلاثة قرون ، بحيث نستطيع أن نقول إن السودان تعرَّب فى عهد هذه الدولة . ومرَّ بنا ما كان بها من طرق وتجمعات صوفية وما كان بها من نهضة ثقافية ، وتأسست فى جبال النوبا غربى السودان الأوسط مملكة تقلى سنة ٩٧٧ هـ/١٥٧٠ م وظلت إلى أواخر القرن التاسع عشر وقد عملت بقوة على إتاحة الفرصة للعناصر العربية بالتوغل فى الشمال الشرقى من تلك الجبال ، ووضعت نصب عينيها نشر الإسلام والعربية وشجعت القبائل العربية فى حوض النيل وشرقى السودان على الهجرة إليها . وتأسست فى دارفور سلطنة أسستها قبائل التنجور القادمة من بلاد النوبة وقبائل الكنجارة القادمة من إقليم بحيرة تشاد ، ويبدو أنهم كانوا من عرب الهلالية الذين اكتسحوا تونس فى القرن الخامس الهجرى إذ كانوا ينتسبون إلى أبى زيد الهلالى . وقامت هذه السلطنة سنة ١٠٤٦ هـ/١٦٣٧ م وظلت حتى سنة ١٢٩١ هـ/١٨٧٥ م وتبعتها واداى وبرنو فى عهد ملكها الأول سليمان سلونج ، وعملت هذه المملكة طوال عهدها على نشر الإسلام والعربية ، ومثلها كردفان . وكان بدوى أبو صفية يأتى ببعض أهل جبال النوبا إلى مدينة الأبيض ، فيحفظهم القرآن الكريم والضرورى من الفقه وعلم التوحيد ، ويعيدهم إلى بلادهم لنشر الإسلام .

ويمكن القول بأننا لا نصل إلى أواخر عهد دولة الفونج فى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى إلا وقد تعرَّب السودان ، ما عدا بعض الجبال الشاهقة المنعزلة التى لم يتح للقبائل العربية الاختلاط بسكانها مثل جبل مرة فى أقصى الغرب وما عدا سكان قبيلة الأمرأر من قبائل البجة بجوار الحبشة لوعورة المسالك إليها مما جعلها تتأخر فى التعرب بالقياس إلى أخواتها من قبائل البجة . ووصل التعرب إلى بيئة الغابات فى الجنوب عن طريق بعض القبائل العربية مثل البقارة فى كردفان وبنى سليم عند كاكا على النيل الأبيض ، ولهم فضل تعرب الشلك ومثل اختلاط عرب الزريقات بقبائل الدينكا فى بحر العرب . وأكثر أجزاء هذا التعرب كانت تستخدم لغاتها المحلية بجانب العربية ، وأخذ هذا التعرب يستقر ويتسع مع مر الزمن طوال القرن التاسع عشر .

٢

شعراء المديح

من يقرأ كتاب الطبقات لودضيف الله يعرف أن الشعراء كانوا يكثرون من مديح ملوك الفونج منذ قامت دولتهم فى سنار ، غير أن مدائحهم لم تكن من الجودة بحيث نستطيع عرض نماذج كثيرة منها ، ونجد الشيخ الصوفى فرح ودتكتوك المتوفى سنة ١٠١٧ هـ/١٦٠٩ م بعد قيام دولتهم بنحو قرن ينعى على الشعراء فى عهده وقوفهم المتكرر على أبواب ملوك الفونج أو سلاطينهم يستمنحونهم الهبات والعطايا قائلا[١]:

يا واقفًا عند أبواب السلاطين ... ارفقْ بنفسك من همٍّ وتحزينِ
إن كنت تطلب عزًّا لافناء له ... فلا تقفْ عند أبواب السلاطين
خَلِّ الملوك بدنياهم وما جمعوا ... وقم بدينك من فـرضٍ ومَسْنونِ
استَغْنِ بالله عن دنيا الملوك كما اسْـ ... ـتَغْنى الملوك بدنياهـم عن الدِّين

والشيخ فرح ود تكتوك ينهى الشعراء عن الوقوف بأبواب السلاطين انتظارا لأعطياتهم ويقول لهم : رفقا بأنفسكم وما تحمِّلونها من هم الانتظار لتلك الأعطيات ، ومن يطلب العز الخالد لا يقف بتلك الأبواب إنما يقف بباب ربه ، تاركا للملوك دنياهم وما جمعوا مع أداء فروض دينه ونوافله ، مستغنيا بالله وما يرزقه عن دنيا الملوك كما استغنوا هم بدنياهم ومتاعها عن الدين . وقد أخذ شعر المديح يكثر فى السودان منذ القرن التاسع عشر الميلادى ، وكان لثورة المهدى الحظ الأوفر فيه ، فقد حقق للسودان استقلالا وانتصارات متعددة وكأنما أعاد إليها الروح التى كانت فقدتها وجعلها تشعر بشخصيتها فى عمق ، مما جعل كثيرين من الشعراء يتغنون بمديحه وانتصارات جيوشه بائين فى ذلك غير قليل من الحماسة الملتهبة مشيرين إلى دعوته الدينية وأنه يأخذ فيها بهدى القرآن والسنة النبوية من مثل قول عبد الغنى السلاوى قاضى دنقلة[٢] :

ما هَدْيُه غير الكتاب وسنَّةٍ ... والتاركون لذاكَ هم كُفَراءُ
أجْلَى الصَّدا وأزاح أنواع الرَّدَى ... وسمتْ به فوق السَّما علياءُ
أمستْ بهِ آثـار طَـهَ ونورُها ... يعلو ولا يعلو عليه سناءُ
فالمجـدُ فيـه مؤثَّلٌ والفضل منـ ... ـه مؤمَّلٌ والنـاس فيـه سواء

(١) انظر طبقات ود ضيف الله (طبع صديق) ص ١٥ وشعراء السودان جمع سعد ميخائيل (طبع القاهرة) ص ٢٦٠ .

(٢) نفثات اليراع فى الأدب والتاريخ والاجتماع لمحمد عبد الرحيم (طبع الخرطوم) ص ٨٣ وانظر شعراء الوطنية للدكتور صلاح الدين المليك (طبع دار جامعة الخرطوم ، ص ٣٣٢ .

وهو يقول إن دعوته قائمة على الأخذ بالكتاب والسنة النبوية ، ومن يرفض دعوته يكون كافرا ويصفه بأنه نَحَّى الصدأ والكدرة عن وجه الحياة فى السودان ونَحَّى أنواع الهلاك والبوار ، ويقول إن علياءه علت به فوق السموات السبع ، وأمست آثار طه تتعالى ولا يعلو عليها سناء ولا نور ، ويذكر أن مجده أصيل والفضل منه مؤمل يشترك فيه السودانيون جميعا ، وسنترجم عما قليل لشاعرين من شعراء المهدى هما : حسين زهراء ومحمد عمر البنا . وكان قائد جيش الأنصار عثمان دقنة فى شرقى البلاد بمدينة هندوب قرب مدينة سواكن ومعه فرق كبيرة من الجيش فبلغ التعايشى خليفة المهدى أن جيشا إنجليزيا يتقدم نحو سواكن ليفاجىء عثمان دقنة فى هندوب ، فكتب إلى عثمان دقنة يأمره بالانسحاب من المدينة لاستدراج العدو إلى شعاب الجبال ، ومباغته هناك ، ونكل عثمان دقنة بالجيش الإنجليزى فى هشيم ، وفى ذلك يقول محمد الطاهر المجذوب كاتبه فى قصيدة حماسية[1] :

هندوب تعرف صَبْرنا ... كيف ارتكبْنا للمصاعبْ
وهَشيمُ تشهدُ عزمنا ... كيف ادَّرَعْنَا للمصائب
يا طالما صدنا بها ... صَيْدَ الغَضَنْفَرِ للثعالب[2]
نَحْنَى لدينِ الله بل ... فى شأنِهِ نَلْقَى المعاطبْ[3]
متوسلين إليه بالـ ... ـمهدىِّ وِجْهة كلِّ راغب
وخليفةِ المهدىِّ عَبْـ ... ـدِ الله مفتاح المطالب

وهو يقول إن « هندوب » تعرف صبرنا فى الحرب وكيف نعد العدة لها ، وتلك « هشيم » تشهد عزمنا المصمم وكيف أخذنا أهبتنا للحرب ، وكانت حربا ضارية صاد جيشنا فيها الأعداء صيد الأسد للثعالب . وإننا لنَحْنَى للدفاع عن دين الله معرِّضين أنفسنا للموت من دونه ، متوسلين لإلهنا بإمامنا المهدى وخليفته عبد الله التعايشى مفتاح كل مطلب للشعب السودانى . ويمدح المضوى عبد الرحمن الزبيرَ باشا حاكم بحر الغزال للخديوى إسماعيل ، وكان قد نزل القاهرة بعد ثورة المهدى ، وكان من أنصارها وأرادت حكومة مصر محاكمته فتوسط له الزبير باشا فعُفى عنه ، فامتدحه بقصيدة يقول فيها[4] :

هو فخر سنَّارَ الذى عظمتْ بهِ ... وجَدَاه عمَّ بها جميع السَّاحِ[5]
وتواضعتْ عظماؤها لعلاه إذ ... علموا بما أوتى من الفتاح
من فطنةٍ ونزاهةٍ وشهامةٍ ... وشجاعةٍ فى الغارة المِلْحاح

(١) نفثات اليراع ص ٩٣ وانظر شعراء الوطنية فى السودان ص ٩٠ .
(٢) الغضنفر : الأسد .
(٣) المعاطب : المهالك .
(٤) نفثات اليراع ص ٩٧ . وشعراء الوطنية فى السودان ص ٣٣٨ .
(٥) جداه : عطاؤه .

يحنـــو على مسكينهـم بتعطُّفٍ ويسـدُّ ثَلْمهمُ يَخْفض جَنـــاحِ
فلذا تراهـم يلهجـــون بذكرهِ لا يطربـــون بغير هذا الـرَّاحِ[1]
فالله يبقيـه ويجعـــل سَعْيـــه فى كل ما يهـوى قَرِينَ نجـــاحِ

والمضوى يقول إن الزبير فخر « سنار » الذى أتاح لها عظمة ومجدا ، والذى عمَّ جوده بها جميع الساحات ، ويذكر أن عظماءها تواضعوا له لما أسبغ الله عليه من نعم : فطنة ونزاهة ومروءة . وإنه ليسد ثلمهم وكل ما ينزل بهم من خطوب مع تواضع شديد ، ولذلك يولعون بذكره ولا يطربون إلا لترداد اسمه وكأنه خمر مسكرة لهم . ويدعو له بطول العمر وأن يوفق فى كل ما يسعى إليه مقترنا بالنجاح المنشود . ويمدح عبد الرحمن شوقى السيد على الميرغنى ، وكان فيما يبدو رئيس الطائفة الميرغنية الصوفية – قائلا[2] :

بكم – آلَ طَـهَ ما حييتُ – متيَّمٌ وفيكَ مديحى دون غيرك يا عَلِى
ومَنْ ذا يَرَى فى العمر وجهك مرَّةً تَقَرُّ بـــه عيناه يومًا وتَمْتَلِى
فيسلو هَـــوَى آلِ النبىِّ ، وحبُّهـــم جرى فيه مجرى الروح فى كل مفصلِ
وإنك للإســـلام ركـــنٌ ومَوْئِـــلٌ لتحفظه يـا خيرَ ركـنٍ ومَـوْئِلِ
ورثتَ كريم المجـد عن أكرم الـوَرَى ونـــورَ الهُـــدَى عن وجهـــه المتهلِّلِ

وهو يقول إننى متيمٌ صبابة بحب آل طه ، حبا يتعمقنى طوال حياتى ، وإنى لأقصر عليك – لهذا النسب الكريم – مديحى ، وإن من يرى وجهك فى حياته مرة تَقَرُّ به عيناه وتمتلىء فرحا ولا يستطيع سلوا عن حب آل النبى ، وكيف يسلوهم وحبهم يسرى فيه مسرى الروح فى أعطاف الجسد ومفاصله ، وإنك لركن للإسلام وحصن لتصونه ، يا خير ركن له وحصن ، وقد ورثت عظيم المجد عن أعظم الورى محمد ، وورثت نور الهدى عن وجهه المتهلل المضيىء . ونتوقف قليلا لنترجم لشاعرى المهدى : حسين زهراء ومحمد عمر البنا .

الشيخ حسين[3] زهراء

وُلد الشيخ حسين إبراهيم زهراء حوالى سنة ١٢٤٨ هـ/١٨٣٣ م بقرية وادى شعير فى المسلمية جنوبى الخرطوم بنحو ١٥٠ كيلومترا لأبوين عباسيين ، وتوفى سنة ١٣١٣ هـ/١٨٩٥ م . عُنى أبوه بتعليمه لما لاحظ من فطنته وذكائه ، وبعد حفظه للقرآن الكريم أخذ ينهل من حلقات علماء الدين. وفى نحو العشرين من عمره رحل إلى القاهرة والتحق بالأزهر ، وظل فيه سبع سنوات مكبا على حلقات شيوخه ، حتى إذا اكتمل زاده العلمى عاد

(١) الراح : الخمر .
(٢) شعراء السودان لسعد ميخائيل (طبع القاهرة) . ص ٢٠٢ .
(٣) انظر فى ترجمة الشيخ حسين زهراء نفثات اليراع ص ٨٩ وشعراء السودان ص ٦ وشعراء الوطنية ص٦٥ و ٣٢٢ وما بعدها .

إلى موطنه ، والتف حوله كثير من الطلاب السودانيين يفيدون من علمه . ولما قام المهدى بثورته ظل فترة ينتظر مصيرها ، حتى إذا انتصر المهدى على حملة هكس باشا الإنجليزى فى الأبيض وأبادها وفد عليه ، فقابله بغير قليل من الحفاوة إلا أنه لم يسارع إلى تعيينه فى وظيفة من وظائف دولته الكبرى ، فنظم قصيدة همزية طويلة بها تلميحات إلى ما ينبغى على المهدى من عناية بالعلماء من أمثاله وإسناد الوظائف المهمة إليهم . ويبدو أن المهدى لم يعجبه منه هذا التلميح ، وقدم إليه مدائح أخرى ، وظل غاضًّا بصره عنه . حتى إذا تولى بعده رياسة الدعوة المهدية خليفته عبد الله التعايشى استقدمه وعهد إليه بتدريس مادتى الحديث النبوى وعلم الفرائض (المواريث) . وخلت وظيفة قاضى القضاة فعينه فيها ولقبه بلقب قاضى الإسلام ، وكان يُحق الحق لا يبالى بأحد ، فعرضت عليه قضية ومعها فتوى تهم الخليفة التعايشى ، فحكم فيها بالحق الذى يقتضيه الشرع . وعزله التعايشى فنظم فيه قصيدة هجاء فسجنه ، ويقال إنه منع عنه الأكل والشرب فتوفى صبرا . وكان شاعرا بارعا ، وقصيدته الهمزية فى مديح المهدى طويلة ، ومن تلويحاته فيها له بما ينبغى فى دولته من تقديم العلماء قوله فى تضاعيفها :

برح الخفا ما الحقُّ فيه خفاءُ ... وتوالتِ الآيـــاتُ والأنبـــاءُ
بالآية الكبرى التى بظهورها ... كمل الرِّضا وانجابت الأَسْواء[1]
مهدىُّ ربِّ العَرْشِ مُنْتَظرُ الوَرَى ... والَى الولى والأكرمـــون وراءُ
علماءَ أمةِ أحمدٍ ناشَدْتكم ... ردُّوا جوابىَ إنكم علمـاءُ
أَرْضَى وترضون الضلالَ بُعَيْدَ ما ... ظهر الهُدَى وانجـابَ عنه قذَاءُ
ويخيبُ ظنى فيكمُ وعشيرتى ... أنتـم ويقمع جمَعنا الغُربـاءُ[2]
جَهْلُ الـولاة أمـات دينَ محمَّدٍ ... وأُهَيْلُه ماتـــوا وهـم أحيـاءُ

وهو يهلل لظهور الحق وتوالى العلامات والأنباء بظهور الآية الكبرى المتجسدة فى المهدى والتى كمل للشعب السودانى بها الرضا وانزاحت الأسواء والشرور ، فقد أظهر رب العرش المهدى منتظَر الأمة السودانية . ولا يلبث فى الشطر الثانى أن يقول إنه يقدِّم من بادروا إلى بيعته ، بينما يؤخر الفضلاء ويبعدهم وراءهم ، ويناشد علماء الأمة أترضون هذا الضلال ، بعدما اتضح الهدى وانحسرت الأقذاء عنه ، ويخيب ظنى فيكم ويقهرنا الغرباء ، ويتمادى الولاة فى جهلهم . ويتساءل ثانية أماتت شريعة محمد وأهلها من العلماء وهم أحياء . والقصيدة تحمل حملة عنيفة على المهدى وأوليائه وأنصاره الذين يقربهم قربى رفيعة . ويمدحه بقصيدة عينية يقول فيها :

---

(١) أسواء جمع سوء

(٢) يقمع : يقهر .

عمادُ الهدى أُسَّ الجَدَا معدمُ العِدَا بَدا وإليه الناسُ فى الأرض نُجَّعُ[1]
مَلاكٌ أساطينُ الخلافة كفوُها الـ مُعَدُّ لها الحصنُ الحصينُ المنيعُ
إمامُ الهُدَى الهادى لكلٍّ ومرشدٌ بهامتـه التـــاجُ النفيسُ المرصَّع
بهِ أخبرتْ من قبلُ وقتَ ظهـورِه صحـاحٌ رواها هِبْرِزِىٌّ ومُوضِعُ[2]

وهو يقول إن المهدى العماد الذى يقوم عليه الهدى وأس العطاء ومميت الأعداء ، ظهر والناس يطلبونه هو وعطاياه ، إنه ملاك ، ونعم الكفء المعد لأعمدة الخلافة والحصن الحصين ، إمام الهدى الهادى المرشد لكل الناس ، وإن رأسه ليزدان بتاج الهدى النفيس المرصَّع . ويبالغ حسين زهراء مبالغة مفرطة إذ يقول إن أحاديث صحاحا بشَّرت به قبل ظهوره ، رواها محدث مقدام مسرع فى خطاه . ويمدحه بقصيدة دالية ، وفيها ينشد :

الأمـــر جِدٌّ والخطـوبُ جِدادُ وجنـــودُ مهدىٌّ الوَرَى أمجـادُ
حربٌ بمحراب الهدى من بأسِه بِشَتاتهـــا تتزلزل الأَطْـــواد[3]
لِمْ لا وأملاكُ السموات العُلا فى جيش مهدىٌّ الوَرَى أجنادُ
للحق جاء وللمنـــاكر قاتـــلٌ وعلى الفِعال من المقـــال مـــزاد

والقصيدة حماسية ، وبدأها حسين الزهراء بأن الأمر جد والخطوب متجددة وجند المهدى أمجاد أبطال ، وإن حربا يقودها المهدى من محراب الهدى لتتزلزل لها الجبال ، إذ ليس جندها من أسود السودان الأشداء فحسب ، فإن الملائكة من السموات الرفيعة تشترك معهم فى الحرب تؤيدهم وتنصرهم ، ولا عجب فقد جاء المهدى لإقرار الحق وإزالة كل منكر ، وإن فعاله لأعظم من أن يحيط بها مقال .

الشيخ محمد[4] عمر البنا

ولد الشيخ محمد عمر البنا فى رفاعة بإقليم الجزيرة سنة ١٢٦٤ هـ/١٨٤٨ م وتوفى سنة ١٣٣٦ هـ/١٩١٨ م وحاول الاشتغال بالتجارة فى مطالع شبابه وخسرت تجارته ، فتركها إلى حلقات الشيوخ ينهل منها ، وفى الثالثة والعشرين من عمره رحل إلى القاهرة واختلف إلى دروس شيوخه مدة غير قليلة ، وعاد إلى موطنه . ولما قام المهدى بدعوته هاجر إليه وبايعه وأخلص فى بيعته ، وامتدحه وأصبح شاعره وشاعر دعوته ، ولزمه ولزم خليفته عبد الله

(١) نجع جمع ناجع : طالب الكلأ .
(٢) هبرزى: شجاع مقدام. موضع : مسرع فى خطاه .
(٣) الأطواد : الجبال .
(٤) انظر فى ترجمة الشيخ محمد عمر البنا وشعره نفثات اليراع ص ٦٠٠ وشعراء السودان ص ٢٧٣ وكتاب الشعر الحديث فى السودان للدكتور محمد إبراهيم الشوش ص ٣٠ وما بعدها وفى مواضع مختلفة (نشر معهد الدراسات العربية العالية بالجامعة العربية) وشعراء الوطنية فى السودان طبع دار جامعة الخرطوم ص ٨٨ و ٣١٧ وما بعدهما .

التعايشى ، وقرَّبه منه ، وجعله بمنزلة مستشار له ، ولما انتهى عهد التعايشى والدعوة المهدية عيَّنته الحكومة الثنائية قاضيا ثم مفتشا للمحاكم الشرعية إلى أن لبَّى نداء ربه . وكان شاعرا مجيدا ، بل كان أبرع شعراء السودان فى زمنه ، ويتميز بأسلوب جزل رصين ، وشعره فى المهدى والدعوة المهدية يكتظ بحماسة قوية على نحو ما نرى فى تائيته التى طارت شهرتها ، وهو يستهلها بقوله :

الحـربُ صَبْرٌ واللقـاءُ ثباتُ ... والموتُ فى شأن الإلهِ حياةُ
والجبنُ عارٌ والشجاعةُ هيبةٌ ... للمرء ما اقترنتْ بها العزماتُ
والصبر عند البـأسِ مكرمةٌ ومقـ ... ـدامُ الرجـال تهابُـه الوقعـاتُ
والفخر كلُّ الفخر بيعُ النَّفْس للـ ... ـه العلىِّ وأجرُهـا الجنَّـاتُ
إن الجهـاد فضيلـةٌ مرضيَّةٌ ... شهدتْ بِمُحْكم أجرِها الآيـاتُ
قد حاز هذا الافتخـارَ جميعَـه ... صَحْبُ الإمـام السادةُ القاداتَ

وهو يقول لأنصار المهدى محمسا لهم : الحرب صبر واللقاء ثبات واستماتة ، وإنها لحرب عظيمة فى نصرة دين الله ، والجبن والقعود عنها عار لا يماثله عار ، وما أعظم الشجاعة المقترنة بالعزيمة وما أعظم الصبر حتى الموت ، بل إن الموت ليهاب شجعانَ الرجال ، وإن بيع النفس لله العلى فخر لا يماثله فخر لعظم الأجر من الجنات ونعيمها الخالد ، إنها ليست حربا بل جهادا فى سبيل الله ودينه الحنيف الذى نزل القرآن الكريم بمحكم أجره وثوابه من مثل قوله : ﴿ولا تحسبن الذين قُتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون فَرِحين بما آتاهم الله من فضله﴾ ويقول إن هذا الفخر جميعه حازه صحب المهدى وقواده . ويشيد بجهادهم فى نشر الدعوة المهدية منشدا :

قومٌ إذا حَمِيَ الوطيسُ رأيتهم ... شُمَّ الجبـال ، وللضعيف حماةُ
ولباسُهم سَرْدُ الحديد وبأسهم ... شهدتْ به يوم اللِّقا الغاراتُ
وخَلوقُهم صَدَأُ الدروعِ ، لحزمهم ... قتـلُ الأعـادى عندهم عاداتُ
فى السِّلْم تلقاهمْ ركوعًا سُجَّدًا ... أثَرُ السجـودِ عليهمُ وسِماتُ
وتخالُهم يـوم الجِلاد ضراغمًا ... أسْدٌ وأُسْلُ رماحهـم غاباتُ
ركبوا الجيادَ وغادروا شِلْوَ العِدَا ... رزقَ النُّسور ولحمُهم أقـواتُ
والأرض سالتْ بالدمـاء وما بها ... غيرُ الجماجم والشعـور نبـاتُ

فهم قوم بواسل إذا دارت رحا الحرب رأيتهم جبالا شاهقة لا ينالها أحد ، وهم مع ذلك حماة لكل ضعيف يأخذون بيده ، لباسهم دروع متينة النسج ، والغارات تشهد بشجاعتهم الخارقة ، وليس لهم طيب إلا صدأ الدروع ، مع اكتمال حزم فى قتل الأعادى والتنكيل بهم .

أما فى السلم فدائما راكعون ساجدون لله وعلى وجوههم أثر السجود وعلاماته . ويوم النزال تظنهم أسدا وقد بدت رماحهم الطويلة فوقهم وكأنها غابة ضخمة . ويقول إنهم يبادرون إلى الحرب فيركبون خيولهم ، وما هى إلا ساعات يغادرون بعدها ساحة الحرب وقد خلّفوا للنسور طعامها من لحوم أعدائهم ، وتسيل الأرض بدمائهم وكأنما أنبتت جماجم ورءوسا لكثرة القتلى . ويشيد البنّا عقب ذلك بانتصاراتهم وإعلائهم لكلمة الله وإرضائهم لرسوله وقمعهم لأعدائهم ، ويحث المهدى على غزو الخرطوم وإخراج الغواة المفسدين منها ضاربا له المثل بجهاد الرسول والصحابة ضد العتاة الظالمين ، ويهنىء الشهداء من جيشه ، فالحور العين تنتظر لقاءهم فرحا بهم ، والجنات تزينت لقدومهم . والقصيدة شعلة من الحماسة الملتهبة . وللبنّا قصيدة يمتدح بها عثمان دقنه قائد جيش المهديين فى شرقى السودان ، وفيها يصور بسالة جنوده منشدا :

بعثتْ لهم همُ الجهاد ملابسَ النَّصر العزيزِ يمدُّه التصويبُ
وأمدَّهم جيشُ الملائك ناشرا رايات نَصْرٍ للبلاد تجوبُ
فسيوفهم مسلولةٌ ورماحهم مسنونةٌ وعدوُّهم مرعوبُ
وعدوُّهم دَوْمًا يَغَصُّ بريقهِ والرعبُ منهم للقلوب يُذيب
إن نوزلوا كانوا الليوثَ معاركًا أو غولبوا فعدوّهم مغلوبُ
أو حوربوا فالرُّعْبُ من أعْوانهم دَوْمًا وعَقْلُ عِدائهم مسلوبُ

وهو يقول : كأنما هم الجهاد القعساء أرسلت إليهم ملابس النَّصْر ترافقها إصابة الأهداف ، بل لقد زوَّدهم جيش الملائكة برايات نصر نشرها فى البلاد ، وسيوفهم مسلولة من أغمادها ورماحهم مسنونة قاطعة ، وأعداؤهم غاصُّون بريقهم من شدة رعبهم ، بل ليكاد الرعب يذيب قلوبهم . وإن نوزلوا فى معركة كانوا أسودا وإن غولبوا غلبوا وقهروا الأعداء قهرا ، أو حوربوا كان الرعب من أنصارهم دائما ، ودائما كان عقل أعدائهم مسلوبا من هول حربهم ونزالهم الضارى .

٣

شعراء الفخر والحماسة

مرت بنا أشعار حماسية زمن الدعوة المهدية لمحمد الطاهر المجذوب ومحمد عمر البنا ، ونلتقى بالشاعر يحيى السلاوى السودانى يرحل إلى مصر للمشاركة فى الثورة العرابية ، وسنفرد له ترجمة عما قليل ، نعرض فيها له قصيدة حماسية . وتلقانا عند عثمان هاشم حماسية بديعة فى حرب مصطفى كمال لليونان وإخراجهم على وجوههم مدحورين من الأناضول ، وسنخصه

بترجمة ، ولغير شاعر سودانى فخر حماسىٌ ، وهو يتخذ صورا متعددة ، من ذلك فخر الشخص بنفسه وآبائه مثل قول عبد الله الكردى المولود سنة ١٣٠١ هـ/١٨٨٤ م[١] :

إنّى ابنُ أُنثَى حُرَّةٍ عربيةٍ ... آباؤها بِيضُ الوجـــوه فُحولُ[٢]
إنى عريقٌ فى النّجار وأبلجٌ ... فى بُرْده كــرمٌ يكــاد يسيل[٣]
تُنميه للحىِّ اللّقاح عشيرةٌ ... وأبٌ وقــورٌ ماجــدٌ بُهْلــول[٤]
وأنا امرؤٌ زَيْنُ المحافلِ شاعرٌ ... لى هِــزَّةٌ نحــو السماح تميلُ
هَتَفَتْ بذكرى فى البلاد قصائدى ... وشَدَا بهــنَّ على الغصون هَديل

وهو يفتخر بأن أمه عربية وأن آباءه بيض الوجوه فائقون لأعمالهم الجليلة وأنه عريق فى أصله مشرق الوجه ، غيث مدرار ، يكاد الكرم يسيل من برده ، يُنسب فى عشيرته لحىٍّ لم يدنْ للملوكِ أبدًا ، وأبوه وقور ماجد سيد ، وإنه لزين المحافل شاعر يهتز للشيم الكريمة من سماحة وغير سماحة ، وقد شاع ذكره فى البلاد لقصائده البديعة ، وغنى بها على الغصون هديل الحمام وكأنه يرددها فى تلاحينه . ويقول على أرباب مفاخرا بنفسه فيما يقدم لوطنه[٥] :

إذا أنا لم أرفعْ إلى المجد موطنى ... فلا ساعدى يوما علتْه مناكبُهْ
أقومىَ إنْ مِتُّ اذكرونى فإنما ... حياتىَ وَقْفٌ للعــلا ومراكبه
ومالىَ مقســومٌ لكلِّ عشيرتى ... وصدرىَ رَحْبٌ لا تضيقُ جوانبه
ولا أنا فعَّالٌ لشىءٍ يَشيننى ... ولستُ بعــذَّالٍ لخِلّى أعاتبه
هل الخيرُ إلا أن تقــوم بواجبٍ ... تســاعد مسكينــا ويُعْطَى رغائبُهْ

وهو يقول إنه حرىٌ به الموت إن لم يعش ليرفع من مجد وطنه وشأنه ، وحرىٌ بقومه أن يذكروه حين يموت ، فحياته كانت وقفا للعلا وأسبابه . ويذكر أن لكل فرد فى عشيرته حظا فى ماله ، وأنه حليم لا يضيق صدره بشىء ، مكرم لنفسه لا يعمل شيئا يشينه ، ومكرم لصديقه فلا يلومه ولا يعتب عليه فى شىء ، ويقول إن الخير كل الخير أن تؤدى واجبا فتساعد مسكينا ، وتحقق له بعض رغائبه وأمانيه . ويفاخر عبد الرحمن شوقى بجدوده فى الزمان القديم[٦] :

---

(١) شعراء السودان ص ١٨٣ .
(٢) بيض الوجوه كناية عن حسن أفعالهم . فحول : متفوقون .
(٣) النجار : الأصل . أبلج : مشرق الوجه .
(٤) قوم لقاح : لم يدينوا لملوك . بهلول : سيد كريم .
(٥) شعراء السودان ص ٢٤٣ .
(٦) نفثات اليراع ص ١٨٣ .

زمانٌ تولَّى كان فيهِ جدُودنا ... لُيوثا يقودون الخميسَ العَرَمْرَما[1]
إذا ابتسموا فالخُلْد فى بَسماتهم ... وإن عَبَسُوا فالكونُ صار جهنَّما
وإن عصروا عُودَ الزمان أطاعهم ... ولان لهم عاصيه حتى تقوَّما
وإن ضربوا دَكُّوا القِلاع بعزمهم ... وأوْمَوْا إلى بنيانها فتهدَّما
شموسُ سماء المجد أيان أشرقوا ... بدورُ الدياجى حيث كانوا وأنجما
لقد نصروا الدين الحنيف وسدَّدوا ... إلى الكفر سهما فى الفؤاد مصمَّما
وساسوا فما جاروا ولا تبعوا هَوًى ... ولا حمَّلوا النَّفْسَ الضعيفةَ مَغْرَما
إلى أن دعا داعى الرَّدى فتتابعوا ... نجوما هوتْ فالكونُ أصبحَ مظلما

وهو يصور المجد التاريخى العظيم لأمتنا العربية فى الأزمنة الغابرة ، ذاكرًا أن زمانا مضى كان جدودنا فيه أسدا ضارية ، إذا رضوا وابتسموا فكأنما فُتحت أبواب الجنان ، وإذا عبسوا ونازلوا قوما فقد أصبح الكون نارا حامية ، وإن عصروا عود الزمان انعصر لهم ، وإن عصا قوَّموه حتى ينعصر ، وإن ضربوا دُكَّتِ القلاع بعزمهم الجبار ، بل لو أشاروا إلى بنيانها لخرَّ منقضًا . هم شموس سماء المجد فى كل مكان يحلون فيه وبدور الدياجى فى كل بقعة ينزلونها ونجوم ساطعة ، وطالما نصروا الدين الحنيف وسددوا إلى صدور الكفر وأفئدته سهاما مصمية . وساسوا الأمم والشعوب سياسة عادلة لا تميل مع الهوى ، مليئة بالرحمة للضعفاء فلا تحمِّلهم مغرما ، ودار بهم الزمان دورات إلى أن دعاهم داعى الموت فتتابعوا نجوما تهاوت وأصبح الكون مظلما . وينشد الشيخ محمد سعيد العباسى حماسية فى الحرب الطرابلسية الإيطالية سنة ١٣٣٠هـ/١٩١٢م ، وقد انتصر الطرابلسيون فى بعض المواقع ، وفيها يقول[2] :

يـروم بنو روما طرابُلُسًا وقد ... غزوها بجيشٍ ضاقَ ذَرْعًا بهِ القَفْرُ[3]
أثاروا وَغًى دارتْ رَحاها عليهمُ ... وراموا بها فخرًا ففاتهمُ الفَخْرُ
أعدُّوا لها من عُدَّة الحرب كلَّ ما ... يضيق بهِ التعدادُ والبَرُّ والبحر
وقد زعموا أنْ سوف ينجح سَعْيُهم ... ولكنـه زعم الأضاليل والهَذْرُ
أبيدوا فكانوا عبرةَ النـاس بعدهم ... وحلَّـق فى آثـار موتاهمُ النَّسْرُ

وهو يقول إن أبناء روما قصدوا طرابلس بجيش كثيف ضاق به القفر وُسْعًا ، ودارت رحا حرب ضارية أراد بها الطليان فخرا ففاتهم ، مع ما أعدوا للحرب من عدة وأسلحة لا يحيط بها العد والإحصاء ولا البر والبحر ، وزعموا أن نصرهم قريب وهو زعم أضاليل وهذيان فقد

(١) الخميس العرمرم : الجيش الكثيف الكثير .
(٢) شعراء السودان ص ٢٨٨ وكتاب محمد سعيد العباسى للدكتور أحمد عبد الله سامى (طبع الخرطوم) ص ٢٣٩ وانظر ديوانه .
(٣) ذرعا : وسعا .

أبيدوا عن آخرهم ، وأصبحوا عبرة وموعظة لكل معتد أثيم ، وحلقت فوق جثثهم النسور وانقضَّت عليها انقضاضا . ويقول مفاخرا بشيمه الرفيعة وأجداده[1] :

ألْقَى بِصَبْرى حُسامَ الحادثاتِ ولى ... عزمٌ أصدُّ به ما قد يلاقينى
ولا أتوق لحالٍ لا تُلائمُها ... حالى ولا منزلُ اللذّاتِ يُلْهينى
ولستُ أرضى من الدنيا وإن عظمتْ ... إلا الذى بجميل الذكر يرضينى
وكيف أقبلُ أسبابَ الهوانِ ولى ... آباءُ صِدْقٍ من الغُرِّ الميامينِ[2]
النازلين على حكم العلا أبدًا ... مَنْ زيَّنوا الكونَ منهم أىَّ تزيينِ
من كل أروعَ فى أكتاده لِبَدٌ ... كالليث ، والليْثُ لا يُغْضى على هُونِ[3]

والعباسى يقول إنه يتدرع أو يتسلَّح بصبر أمام جسام الحادثات فلا تنال منه ، ويصد بعزمه القوى ما يلقاه من خطوب ، ولا يتشوق لحال لا تتفق وحاله ، ومنزل اللذات لا يلهيه ، بل يكف نفسه عنه ، ولا يرضيه من دنياه إلا الذكر الجميل والعمل الحميد ولا يقبل هوانا وكيف يقبل هوانا أو ضيما ، وآباؤه آباء صدق من المشهورين ميمونى النقيبة الذين لا ينزلون أبدا إلا على حكم العلا وقد ازدان بهم الكون زينة رفيعة ، من كل شجاع على كاهله لبد كأنه ليث حقيقى ، والليث لا يغمض عينه ولا يستطيع الصبر على هوان وضيم . وحرىّ بنا أن نترجم الآن ليحيى السلاوى السودانى وعثمان هاشم .

الشيخ يحيى[4] السلاوى السودانى

ولد الشيخ يحيى السلاوى السودانى بالخرطوم حوالى سنة ١٢٦٢ هـ/١٨٤٦ م وهو ابن عبد الغنى السلاوى قاضى دنقلة الذى مر فى شعراء المديح أنه كان من شعراء المهدى وذكرنا له أبياتا من قصيدة فى مديحه هناك ، وكان ابنه يحيى شاعرا مثله ، ونراه حين نشبت ثورة عرابى بمصر سنة ١٢٩٨ هـ/١٨٨١ م يطلب من مدير دنقلة ترحيله إلى مصر ، ويرفض طلبه ، فيبرق إلى محمد رءوف باشا حاكم السودان البيتين التاليين :

مولاىَ عزَّ ترحُّلى ... وغدوتُ مقصوصَ الجناحْ
فأرِشْ جَناحى مثلما ... عوَّدْتنيه ولا جُناحْ

فأبرق رءوف باشا إلى مدير دنقلة بترحيله على نفقة الحكومة إلى مصر ، وبمجرد أن نزلها اندمج فى الثورة ، وعرف أحمد عرابى أنه شاعر فطلب إليه أن ينظم قصيدة لطبعها ونشرها

(١) شعراء السودان ص ٢٩٣ ونفثات اليراع ص ١٣٩ وكتاب محمد سعيد العباسى ص ١٢٩ وما بعدها وانظر ديوانه .
(٢) الغر : المشاهير . الميامين : المباركين .
(٣) أكتاده جمع كتد : مجتمع الكتفين .
(٤) انظر فى ترجمة يحيى السلاوى وقصيدته نفثات اليراع ص ٨٣ وشعراء الوطنية فى السودان ص ٢٨ ، ٢٩٩ .

فى أرجاء مصر . ويقول محمد عبد الرحيم فى ترجمته له بكتابه نفثات اليراع إنه نظم – تلبية لعرابى – قصيدة يائية من تسعة وتسعين بيتا عثرنا على طائفة من أبياتها ، وبلغ من اهتمام عرابى والشعب المصرى بها أن طُبعت بماء الذهب وبيعت فى شوارع القاهرة ، وكان ثمن النسخة منها جنيها ذهبا ، وبلغ ما عثر عليه محمد عبد الرحيم منها خمسة وأربعين بيتا وهى أشبه بمنشور ثورى وهو يستهلها بقوله :

شُغِل العِدَا بتشتُّتِ الأحزاب ... واللّهُ ناصرُنا بسيفِ عرابى
والقطرُ فيه من الرجال كفاءةٌ ... للحادثات فهمْ أولو الألبابِ
وحميَّةُ الإسلام تقضى بالوفا ... حتما على كلِّ امرىءٍ أوّابِ[1]
ومحبَّةُ الوطن العزيز تحثُّهم ... والفَلْجُ إذْنٌ باتّباع صوابِ
والمشركون خواسرٌ فى سعيهم ... هُزِموا وقد نكصوا على الأعقابِ[2]

والشيخ يحيى يقول إن الإنجليز شغلوا بتشتت جندهم ، وسماهم الأحزاب أسوة بغزوة كفار قريش والعرب المسماة غزوة الأحزاب ، ويقول إن الله ناصرنا بسيف الحق : سيف أحمد عرابى ، والقطر ملىء برجال أكفاء لهؤلاء الأعداء ، وهم مملوءون حمية للإسلام ، تأمر كل مسلم أواب متبتل لربه بالوفاء لدينه الحنيف والدفاع عنه بالروح ، وأيضا مملوءون محبة للوطن تحثهم على الدفاع عنه وهو دفاع سينتهى إلى النصر المبين ، وقد نصرنا فعلا فى بعض المواقع ، وهو إذْنٌ وبشرى بالنصر التام وإن الإنجليز لخاسرون فى حربهم إذ هُزموا ورجعوا ناكصين على أعقابهم . ويمضى قائلا :

هيَّا بنا يا أهل مصرَ إلى الرِّضا ... والفوزِ فى العُقْبَى بغير حسابِ
أنتم أولو الهمم التى بسهامها ... كم من عدوٍّ آبَ شرَّ إيابِ
لا تشغلنّكم الحياةُ فإنها ... ذلٌّ لمن يَرْضَى بهتك جَنابِ
ولقد نرى إخواننا فى حالةٍ ... تحتاجُ للأعوان والأصحابِ

وهو يهيب بأهل مصر أن يؤيدوا عرابى ويشتركوا فى حرب الإنجليز طلبا للفوز فى الآخرة ويقول إنكم أولو الهمم المصممة ، وما أكثر ما نكلتم بأعداء بلدكم حتى آبوا شر مآب ، ولا تشغلنكم الحياة عن واجبكم فى الدفاع المستميت عن بلدكم ، وإنه لذل لأى أمة ما مثله ذل أن ترضى بهتك العدو لأى ناحية من نواحيها ، وإن إخواننا من الجنود وقادتهم لفى حاجة إلى العون المادى والحربى ، ويذكر بعض الشخصيات التى ناصرت عرابى وأمدته بعون قيم .

---

(١) أواب هنا : متبتل إلى ربه .

(٢) نكصوا على الأعقاب : رجعوا عما كانوا اعتزموه .

والقصيدة وثيقة مهمة فى موقف الشعب من ثورة عرابى وتأييده له فى حربه ضد الإنجليز الغاشمين . ويقول محمد عبد الرحيم : لما دخل اللورد ولسلى بجيشه الإنجليزى إلى القاهرة وأخذت الحكومة تقبض على دعاة الثورة لجأ الشاعر يحيى إلى السيد محمد سر الختم الميرغنى ، فساعده على السفر إلى الآستانة ، وهناك عُيِّن مفتشا للغة العربية فى وزارة المعارف التركية .

عثمان[1] هاشم

ولد فى مدينة بربر أواخر سنة ١٨٩٨ للميلاد ، وهو من الأسرة الهاشمية السودانية التى شاركت بقوة فى العلوم الإسلامية ، وهى تنتسب إلى العباس بن عبد المطلب ، ومن أعلامها أبو القاسم هاشم شيخ علماء السودان ومؤسس المعهد العلمى الدينى بأم درمان سنة ١٩١٢ والطيب أحمد هاشم مفتى السودان . بدأ حياته الدراسية بالاختلاف إلى كتّاب لحفظ القرآن الكريم ، وتركه قبل أن يتمه للالتحاق بمدرسة مدينة بربر الابتدائية ، ومنها تحول إلى القسم الابتدائى فى كلية غوردون وتخرج فيه وعمل فى الحكومة السودانية موظفا منذ سنة ١٩١٥ . وشُغف بالشعر العربى مبكرا فأكبَّ على دواوينه واستيقظت فيه الموهبة الشعرية سريعا ، ونظم فى موضوعات مختلفة جمع منها سعد ميخائيل باقة بديعة حين ألف كتابه شعراء السودان سنة ١٩٢٣ منها قصيدة حماسية فى بطل الأناضول مصطفى كمال أتاتورك ، وكان الحلفاء بعد الحرب العظمى الأولى فى هذا القرن أغروا اليونان باحتلال أزمير وشطر كبير من الأناضول ، واستحال الشعب التركى إلى عصابات مسلحة تقاوم هذا الاحتلال وانضمت إليها قوات نظامية ، وقاد المقاومة سنة ١٩٢١ مصطفى كمال ، وأخذ الترك يسحقون اليونان سحقا ، حتى اضطر من بقى منهم إلى خروجهم من الأناضول جميعه فى سبتمبر سنة ١٩٢٢ وعادت تركيا – بفضل مصطفى كمال – إلى الظهور ببطولتها الحربية القديمة ، وحيَّاه عثمان هاشم بقصيدة رائعة ، يقول له فى مطلعها :

ضربتَ بسيف الحقّ فاندكَّ باطلُ ... وجئتَ بما لم تستطعْه الأوائلُ
ودافعتَ عن دين النبىِّ محمَّدٍ ... ولم تَثْنِ منك العــزمَ تلك القنــابلُ
غضبتَ لدين الله لما رأيتَه ... تُمَدُّ لـــه من كلِّ حَـدْبٍ غوائل[1]
فلما توسَّطتَ الأناضول صِحْتَ فى ... بنيه ألا هُبُّوا دفاعًا وناضلوا
فلبَّتْك من أبناء عثمانَ عصبةٌ ... لها فى صميم الترك مجدٌ ونائلُ
وهاجوا غِضابا كالأســود وأقسموا ... بأن يَصْدُقوا بالفعــل مـا أنت قائل

وهو يقول لمصطفى كمال : ضربت جند اليونان بسيف الحق فاندكَّ حصن باطلهم واحتلالهم الأثيم ، ودافعت عن دين سيد الخلق محمد ، لا تثنيك قنابل الأعداء ، إذ غضبت للدين الحنيف

(١) انظر فى ترجمة عثمان هاشم وشعره شعراء السودان ص ٢١٤ .

غضبة ضارية ، فقد رأيت دواهى كثيرة تحيط به من كل حَدَبٍ وطريق . ولما توسطت الأناضول صرخت فى أهله : هُبُّوا وناضلوا عن حماكم ، ولبَّاك من أبناء الترك عصبة ذات مجد وعطاء عظيم ، وهاجت هياجَ الأسود تدافع عن عرينها . ويخاطب مصطفى كمال مصورا بلاء الترك فى الحرب إلى أن أحرزوا النصر النهائى العظيم قائلا :

أحاطَ بك الأعداءُ حتى كأنهم ... خِضَمٌّ عظيمٌ لم يَبِنْ منه ساحلُ
وكم سفكوا منكم دماءً بريئةً ... وكم سفحتْ للدَّمْع منكم أراملُ
وما هدَّ هذا منك حزمًا عزمته ... وكيف تهدُّ الراسياتِ المعاولُ
فسَقْيًا لأقوامٍ سَقَوْا بِدمائهم ... ثَرَى وَطَنٍ مُدَّتْ إليه الحبائلُ(٢)
وذادوا عن الدين الحنيفِ بغيرةٍ ... كأن صدور القوم منها مَراجلُ(٣)
هنيئًا لك النَّصْرُ المبين وليتنى ... بجيشك جنديٌّ تطوَّع باسل

ويقول عثمان هاشم إن جنود اليونان كانوا كثيرين حتى كأنهم بحر زاخر لا تبين له سواحل ، وكم أراقوا من دماء الترك الطاهرة ، وكم بكت منهم أرامل فقدن أزواجهن ، وما هدَّ ذلك منك شيئا من حزمك وعزمك ، وحقا لا تهدُّ المعاول الراسيات الشامخة . ويدعو الله لهم بالسقيا والرعاية جزاء لدمائهم التى سقوا بها ثرى وطنهم المفدَّى ، وقد مُدَّت إليهم مصايد المكر والغدر ، ودافعوا عن الدين الحنيف بغيرة وحمية ، حتى كأن صدورهم مواقد مشتعلة من شدة الغضب . ويمضى عثمان هاشم فى قصيدته ويختمها بتهنئة حارة لمصطفى كمال بنصره المبين ، ويتمنى لو كان جنديا باسلا فى جيشه ، ونال حظا من شرف هذا النصر العظيم . ويقول مفاخرا بقومه :

إنى لمن معشرٍ طابتْ أصولهمُ ... فطاب فَرْعُهمُ والنَّسْلُ والنَّسَبُ
إن نابك الدهرُ فاستنجدتَهم نَجدوا ... أو مسَّك الضُّرُّ فاستَنْهَضْتَهم وثبوا
غُرٌّ جحاجحةٌ شُمٌّ غَطارِفةٌ ... صِيدٌ جهابذةٌ بل سادةٌ نُجُبُ(٤)

يشير إلى أنه من معشر شريف – إذ هو سليل العباس بن عبد المطلب – معشر طابت أصولهم فطابت فروعهم وطاب نسلهم وذريتهم ، وطاب النسب والانتماء إليهم ، إن أصابك الدهر بنائبة أو كارثة واستنجدتهم نجدوك بكل ما يستطيعون ، وإن مسك ضر واستنهضتهم

(١) الحدب : ما ارتفع وغلظ من الأرض . غوائل جمع غائلة : الداهية .
(٢) الحبائل جمع حبالة : المصيدة .
(٣) مراجل جمع مرجل : القِدر . يريد أنها تغلى غليان القدر .
(٤) غر : مشهورون . جحاجحة جمع جحجاح : السيد السمح الكريم . شم جمع أشم : المترفع . غطارفة جمع غطريف : السيد . صيد جمع أصيد : المزهو بنفسه . جهابذة جمع جهبذ : المجرب . نجب جمع نجيب : فاضل .

للدفاع عنك وثبوا إليك سراعا ، وهم مشهورون سمحاء كرام مترفعون سادة مزهوون بأمجادهم أصحاب فراسة ، بل هم سادة فضلاء . وللشاعر مقطوعة ثانية فى الفخر يقول فيها عن قومه :

قومٌ لقد طابتْ سرائرُهم فلم ... تَرَ غيرَ بَذْلِ نَدًى وبَسْطِ كفوفِ
هم أفضلُ العربِ الكرامِ عشيرةً ... وأعــزُّ أنسابًا وشُمٌّ أنــوفِ[1]
وهمُ الشموسُ إذا الحوادثُ أظلمتْ ... وهم البــدورُ بنــورها المعروفِ

وهو يقول إن قومه قد طابت سرائرهم ودخائلهم ، وهم غيوث مدرارة فى الجود والكرم . وهم أفضل العرب عشيرة ، إذ هم من عشيرة الرسول ﷺ ، لذلك كانوا أعزَّ أنسابًا وشُمَّ أنوف مترفعين ، وإذا أظلمت الدنيا كانوا شموسها المنيرة وبدورها المضيئة .

٤

شعراء الرثاء

(أ) رثاء الأفراد

يأخذ رثاء الأفراد فى الشعر العربى أشكالا ثلاثة هى الندب والتأبين والعزاء ، والندب عادة للأقارب وخاصة الأبناء ويمتلىء بالتفجع عليهم والتحسر والحزن الممض ، والتأبين لشخصيات القبيلة والأمة لبيان فضائلهم وأعمالهم وخسارة المجتمع فيهم ، والعزاء لبيان أن الموت من سنن الحياة وأنه لا يبقى على أحد سيدٍ ومسود . وقد يجمع الشاعر بين هذه الأشكال الثلاثة أو يفرد مرثيته لشكل أو شكلين ، ولكل أمة عربية مراثيها ، وخاصة لرجالاتها المهمين ، وقد مرت بنا دعوة المهدى ، وهو أهم الشخصيات السودانية فى القرن الماضى ، وقد حقق للسودان استقلاله فى سنوات معدودات ، ولبىَّ سريعا نداء ربه وهو فى الحادية والأربعين من عمره ، وبكته السودان وبكاه شعراؤها وفى مقدمتهم الشيخ إبراهيم شريف الدولابى الكردفانى ، ويستهل مرثيته بقوله[2] :

كيف التئامُ فـؤادىَ المفطـورِ ... ورُقُوءُ دَمْعِ محاجرى المفجورِ[3]
أم كيف ينفكُّ الضَّنا عن مُهْجَةٍ ... أحشاؤها تَصْلَى على التَّنُّورِ[4]
أسفٌ على المهدىِّ من مَهْدِ الصِّبا ... قد كان معصومًا عن المحظورِ
فَتحَ الفتوحَ ودمَّر الكفَّار فى ... كلِّ البــــلاد بجيشهِ المنصورِ
هو مجمعُ البحرين : بحرِ شريعةٍ ... طـامٍ وبحــرِ حقيقةٍ مَسْجورِ[5]

وهو يقول إن فؤاده انفطر وانشق حزنا لموت المهدى ولن يرقأ أو يجف دمعه المتفجر ،

---

(١) شم أنوف : متعالون مترفعون .
(٢) انظر القصيدة فى شعراء السودان ص ٢٧ وشعراء الوطنية ص ٣٣٦ .
(٣) المفطور : المنشق . رقوء : انقطاع .
(٤) التنور : الموقد .
(٥) مسجور : مملوء .

ولن ينفكَّ الضنا عن مهجته ، وكأنما تصلى أحشاؤها وتحترق على تنور مشتعل ، ويأسف على المهدى ويقول إنه كان معصوما عن المحظور المحرم منذ صغره ، ودمَّر جيشه الجيوش التى لقيته . وينعته بأنه كان مجمعا لبحر الشريعة الطامى الزاخر وبحر الحقيقة الإلهية المملوء نُسُكا . ويمضى الشاعر فى مرثيته منشدا :

قد كان قَوَّامَ الدُّجَى متبتِّلاً ... متواصلَ الإحسان غيرَ فَخورِ
طلْقَ المحيَّا خاشعا متواضعا ... كهفَ الفقير وجابرَ المكسور
لا يبتغى جاهًا ولا مالاً ولا ... عزَّ الملوك ولا ارتفاعَ الدورِ
تبكى المساجدُ والمحاربُ فَقْده ... ومواطنُ الأذكار والتذكير
يا طيبَ أرضٍ ضمَّ جِسْمَك تُرْبُها ... تُزْرِى بعَرْف المِسْك والكافورِ

وهو يصف المهدى بأنه كان قوَّام الليل مصليا متبتلا لربه ، مواصل الإحسان للفقراء والمساكين دون أى فخر أو مَنٍّ ، طلق المحيا بشوشًا خاشعا متواضعا ، كهفا للفقير وملجأ وجابرا للمكسور ، لا يفكر فى جاه ولا فى مال ولا فى عز الملوك وحياتهم المترفة ولا فى القصور المشيَّدة ، وبكته المساجد والمحارب وبقاع أذكاره وتذكيره ، وما أطيب الأرض التى ضمت جسده ، إن شذاها يزرى بشذا الطيب من المسك والكافور . ويبكى المهدىَّ الشيخ محمد الطاهر المجذوب بمرثية يفتتحها بقوله[1] :

دَهَتْنا دواهٍ يَضْرِسُ القلبَ نابُها ... ويوقد فى الأحشاء نارا منابُها[2]
غداةَ نَعَى الناعون مهديَّنا الذى ... به مِلَّةُ الإسلام جَلَّ مُصابُها
إمامُ الهدى المهدىُّ أفْضَلُ مَنْ دَعَا ... إلى الله مفتاحُ النجاة وبابُها
ألا قد أُصِبْنا إذ عَدِمْنا حَبيبنا ... وضاقتْ بنا الأرضُ الوسيعُ رحابُها
لِيَبْكِ لـه الديـنُ الحنيفُ وملَّـةٌ ... أبـانَ هُداهـا حين تَمَّ خَرابُهـا

والشيخ المجذوب يقول إنه نزلت بهم دواه يعض نابها القلب ويوقد منابها فى الأحشاء نارا غداة نعى الناعون المهدى الذى جَلَّ مصاب الدين الحنيف فيه ، إنه إمام الهدى ومفتاح النجاة من النار وبابها ، ولقد أُصِبْنا فى حبيبنا وضاقت بنا الأرض الفسيحة الواسعة الرحاب ، ألا فليبكه الإسلام وملة أوضح هداها بعد أن خربت خرابا لا آخر له . ويكثر رثاء الشعراء لآبائهم فى السودان ، من ذلك قول القاضى أحمد المرضى المولود سنة ١٨٨٤ للميلاد فى رثاء أبيه[3] :

---

(١) نفثات اليراع ص ٩٤ وشعراء السودان ص ٣١١ وشعراء الوطنية ص ٣٣١ .
(٢) يضرس : يعضّ .
(٣) نفثات اليراع ص ١٥٠ .

لقد آن أنْ أبكى وأغرِى البواكيا ... وأنظمَ من حَبِّ الدمـوع المراثيـا
وأصبغَ عَبْراتى دمًا ليس ناضبًا ... يخدُّ خدودى مُتْرَعـًا والأماقِيَا[1]
أبى ما أبى حرٌّ كريمٌ وذو وفًا ... وما كان ذا وجهين وَغْلاً مُدَاجِيا[2]
أمينٌ على سرِّ الأخلاء حافظٌ ... وكان لإخـوان الصفـاءِ مواسيا
تبوَّأ مهدَ العـزِّ من نَشْأة الصِّبـا ... وشَبَّ على هـام المكـارم ساميا

والمرضى يقول إنه حان أن يبكى ويغرى الباكيات بالبكاء وينظم من درر الدموع عقود المراثى ويصبغ عبراته بالدم الذى لا ينضب ولا يجفّ ، بل يشق الخدود وآماق العيون شقوقا ملأى به . وينوه بأبيه فهو حر كريم وفىّ ، وما كان يوما ذا وجهين نَذْلا منافقا ، بل كان دائما أمينا على سر إخوانه : إخوان الصفاء مواسيا لهم ، نزل مهد العز وأقام به منذ صباه ، وشبَّ على رءوس المكارم ساميا سموا متصلا . ويبكى الشاعر الشيخ عبد الله البنا أباه الشيخ محمد بن عمر البنا مفتش المحاكم الشرعية الذى ترجمنا له بين شعراء المديح بمرثية مؤثرة ، وفيها يقول[3] :

عَيْنُ الكمالِ لهول يومك تَذْرِفُ ... والمجـد يَرْعُدُ والشريعةُ تَرْجُفُ
رفَّاعَ ألويةِ العلاء أرى العُلا ... مهجـورةً طرقاتُهـا تتلهَّف
كشَّافَ غَمَّاءِ المظـالم بالهدى ... حارَ الهدى لما ثَوَى مَنْ يُنْصِفُ
يا قومُ حامى السَّرْح أقصده الرَّدَى ... بكُّوا لـه بدم القلوب ونَزِّفُوا
حجبـوا السَّناءَ عن النواظـر حينما ... هالـوا عليك من التـراب وأسرفوا

وهو يقول لأبيه إن عين الكمال تذرف الدمع مدرارا لهول يوم موتك ، والمجد يرعد رهبة والشريعة ترجف فزعا لموتك ، ويخاطبه : يا رافع ألوية العلاء والشرف أرى العلا هُجِرت طرقاتها وتتلفت متلهفة لو تراك . ويا كاشف غمة المظالم فى القضاء بنور هداك حار الهدى لما مات من ينصف المظلومين . ويلتفت الشاعر إلى قومه فيقول لهم إن الموت طعَن حامى الحمى طعنة نافذة فابكوا له بدم القلوب حتى تنزفوه وتفنوه ، ولقد حجبوا ضياءك عن العيون حين هالوا عليك التراب وأكثروا منه . وكان يعاصر هذا الشاعر محمد سعيد العباسى ، وأنشد له صاحب كتاب الشعراء فى السودان طائفة غير قليلة من المراثى .

---

(١) ناضبا : نافدا . يخد : يشق .
(٢) وغلا : نذلا . مداجيا : منافقا
(٣) ديوان البنا ١/١٦٥ .

الشيخ محمد[1] سعيد العباسى

ولد بالكوة على النيل الأبيض جنوبى الخرطوم لأبيه محمد شريف شيخ الطريقة السمانية سنة ١٢٩٨ هـ/١٨٨١ م وعُنى بتربيته منذ نعومة أظفاره ، فأقرأه القرآن الكريم على مشايخ مهمين ، وحفظه ، فألحقه بأربعة شيوخ من علماء السودان لتعليمه العربية والعروض ، هم الشيوخ : عيسى الدولابى وإبراهيم الركابى ومحمد بدوى وأحمد العاقب الرطابى ، ولما أصبح كتشنر حاكما للسودان أشار على أبيه أن يلحقه بالمدرسة الحربية المصرية ، وسافر إليها سنة ١٨٩٩ للميلاد وظل بها سنتين فى تلك المدرسة ، وتوثقت العلاقة بينه وبين أستاذ اللغة العربية الشيخ عثمان زناتى ، وتفتحت موهبته الشعرية حينئذ وأخذ ينظم بعض أشعار كان يعجب بها أستاذه ويشجعه ، وأحسَّ بحنين شديد لبلاده وبواديه التى كان يرتادها فى غربى السودان ، وقطع دراسته وعاد إلى موطنه يجوب باديه متمتعا بمناظرها ويصفها فى شعره مرارا وصف المفتون بها ، وبحق لاحظ الدكتور عبد المجيد عابدين فى كتابه تاريخ الثقافة العربية فى السودان – وكذلك الدكتور محمد إبراهيم الشوش فى كتابه الشعر الحديث فى السودان – تأثيرها العميق فى شعره . وقد ظل وفيا لمصر بارا ومحبا ، وشعره يكتظ بها وبالعواطف الوطنية والقومية والجوانب الاجتماعية . وجميع هذه الموضوعات عند العباسى اتسعت بعد ثورة سنة ١٩٢٤ التى نجعلها فاتحة العصر الحديث فى السودان ونهاية للعصر الذى نؤرخ فيه للشعر السودانى ، وقد انتقلت إلى الشاعر رياسة الطريقة السمانية الصوفية منذ وفاة أبيه سنة ١٣٢٥ هـ/١٩٠٨ م وهو جانب صوفى جدير بتتبعه ودراسته عنده . ويعد أهم شعراء هذا العصر الذى نؤرخ له من حيث دقة الخيال وجمال الصياغة . ومن قوله فى رثاء أبيه :

إن الليالى ذوات الغَدْرِ راعيةٌ ... ختالةٌ ونفوسُ الناس مَرْعاها[2]
وكان عهدى بها تسطو على مهلٍ ... واليوم صالتْ بيمناها ويُسْراها
بالسيِّدِ السَّنَدِ بن السيد السَّند الـ ... ـرَّاقى سماءَ فخارٍ عزَّ مَرْقاها
يمحِّض الرشد للغاوى ويوضح من ... مناهج الحق للقُصَّاد أهداها
أزالَ عن مشكلات العلم منطقُه ... براقعَ الوهم عن زاهى مُحيَّاها
وإنْ تكلَّم فى علم السلوك له ... فيه عباراتُ ذَوْقٍ ما أُحَيْلاها

وهو يقول إن الليالى الغدارة الخادعة دائما ترعى نفوس الناس نفسا بعد نفس ، ويذكر

(١) انظر الشيخ محمد سعيد العباسى وترجمته وشعره فى شعراء السودان ص ٢٨٥ ونفثات اليراع ص ١٣٥ وتاريخ الثقافة العربية فى السودان للدكتور عبد المجيد عابدين ص ٢٠٩ وكتاب محمد سعيد العباسى للدكتور أحمد عبد الله سامى (طبع دار الإرشاد بالخرطوم) وكتاب الشعر والشعراء فى السودان لأحمد أبو سعد ص ٤٤ وما بعدها والفصل الثالث فى كتاب الشعر الحديث فى السودان : الحلقة الأولى : للدكتور محمد إبراهيم الشوش . وللعباسى ديوان ضخم باسم ديوان العباسى مطبوع بمصر .

(٢) ختالة : غدارة .

أن عهده بها تبطش على مهل ، ويراها اليوم تصول بيسراها ويمناها على أبيه الذى كان سندا يعتمد عليه ، والذى صعد إلى سماء فخر يصعب الصعود إليها ، ويقول إنه كان يسدى النصح للضال عن الهدى ويوضح طريق الحق لقصاده الكثيرين الذين يبغون منه الرشاد ، وكان يرفع حجب الوهم عن مشكلات العلم ووجه الصواب الزاهى . أما فى التصوف والتقى فكانت له عبارات محكمة حلوة . ويبكى طائفة من آبائه منشدا :

أولاك آبـائى الذيـن بِطَوْلِهـم ... طالتْ يدى وسموتُ مَنْ ساماتى[1]
أولاك هم بَصر الكمال وسَمْعُه ... وهمُ لأهـل الفضـل كالعنـوانِ
بمعـارفٍ وعـوارفٍ قُدْسيَّةٍ ... كالشمس لا تَخْفَى على إنسانِ
هم صيَّروا نهج الهداية واضحًا ... للطـالبين قَصِيِّهـم والـدَّانى
نظـروا إلى الدنيـا بعينِ بصيرةٍ ... فتحوَّلوا عن ذا الوجـود الفـانى

والعباسى يذكر أن هؤلاء الآباء الذين رثاهم بفضلهم علا شأنه وسما على من ساماه وفاخره ، ويقول إنهم بصر الكمال وسمعه ، وهم كالعنوان لأهل الفضل بمعارفهم العلمية وعوارفهم القدسية وهم كالشمس لا يخفى فضلهم على أحد ، وقد صيَّروا طريق الهداية واضحا للناس البعيد منهم والقريب وقد نظروا إلى دنياهم بعين بصيرة فازدروها وتحولوا عن دار الفانية إلى دار الخلود . ويقول فى رثاء أستاذه الشيخ محمد البدوى مؤبنا :

كشف النقابَ عن العلوم فزفَّها ... خَوْدًا تفـوقُ على الحسان الخُرَّدِ[2]
مَنْ للعلوم جميعها ولِفقْه ما ... لِكَ والحديثِ صحيحِـه والمُسْنَدِ
وبيانهـا وبديعهـا وأصـولها ... فى منطـقٍ وعويصهـا المتَعقِّدِ
إنى أُعَزِّى كل أمة أحمدٍ ... بمصيبة الحَبْرِ الإمـام محمـدِ
وعليكِ يا دُنْيا السلامُ فقد خَوَتْ ... شمسُ الكمال وغاب بَدْرُ السؤدد[3]

وهو يوضح مدى الخسارة العلمية فى أستاذه فقد رفع الحجاب عن العلوم وزفها إلى تلاميذه كفتاة جميلة تفوق فى جمالها الحسان المتلألئات الفاتنات ، ويقول مَنْ يحل محله للفقه والحديث النبوى ولعلوم البيان والبديع والأصول وتذليل العويص والمشكل فيها . ويعزى الأمة الإسلامية فى مصيبتها به ، ويقول : على الدنيا السلام فقد هوت شمس الكمال وغاب بدر المجد والشرف .

(ب) رثاء المدن

عرف الشعر العربى رثاء المدن منذ رمى عبد الله بن طاهر قائد المأمون بغداد بالمجانيق

(١) طول: فضل : طالت : علت وارتفعت . ساماه : فاخره.
(٢) الخود : الفتاة الجميلة . الخرد جمع خريدة : اللؤلؤة والمرأة الفاتنة .
(٣) خوى : هوى وسقط .

واشتعلت بها النيران والحرائق فقد رثاها غير شاعر ، ورثى ابن الرومى البصرة حين نكل بها الزنج ، وأكثر الأندلسيون من رثاء مدنهم حين سقوطها فى حجور الإسبان ، ورثى ابن رشيق وابن شرف القيروان حين أغارت عليها قبائل الأعراب من بنى هلال وسليم فى أواسط القرن الخامس الهجرى وخرَّبتها . ولم يحدث شىء من ذلك لمدينة فى السودان ، إنما حدثت أحيانا أمطار وسيول هدمت مبانى بعض المدن وأصبحت كثرة أهلها فى العراء سوى من مات منهم وجرفته السيول . ومدينتان حدثت لهما هذه النكبة المروعة هما عطبرة وأم درمان . وكانت نكبة عطبرة سنة ١٩٢١ للميلاد أشد هولا ، فقد انقضَّت بها كثرة من المنازل ، وعمَّ البؤس كثيرا من الأسر ، وممن رثاها مستصرخا للناس أن يمدوا أهلها بالعون والمساعدات عبد الله كردى ، وفيها يقول[1] :

يا آلَ عَطْبرةٍ تعهَّد حيُّكم ... وَبْلٌ بسارية الدموعِ هَطُولُ[2]
جَرف المنازلَ ثم طوَّح بعضَها ... فإذا بها فوق الفضاء طُلولُ
لَهْفى على دورٍ هَوَى بنيانُها ... بالأمس فيه لساكنيه حلولُ
لهفى على تلك العروشِ فإنها ... طاحتْ وأقْوَى رَبْعُها المأهولُ[3]
لهفى على مالٍ غريقٍ ربُّه ... متجلِّدٌ وفؤادُه متبولُ[4]
يا معشر الكرماء هل من رحمةٍ ... إنَّ الضعيف لفضلكم موكول
إن تُنفقوا فالفضل لا يُنْسَى لكم ... أبدا ويحمدُكم عليه الجيلُ
والله يَجْزيكم ومن يُجْزَى غَدًا ... عن صالحٍ فصنيعُه مقبول

وهو يقول لأهل عطبرة إن منازلكم تعهدها ونزل بها خطب عظيم إذ ظلت ساريات الليل وسحبه تصب عليها سيول المطر التى جرفتها ، وطوَّحت بها فى الفضاء من حولها ، وأصبحت تلك المنازل طلولا خربة ، بعد أن كانت عامرة بأهلها . واحسرتاه على تلك الدور التى خر بنيانها وتلك العروش التى تداعت وأقفرت من سكانها ، والأموال التى غرقت فى السيول أمام أعين أصحابها ، وهم متجلدون ذاهلون . ويسترحم الكرام لهؤلاء الضعفاء البؤساء ، ويقول لهم إن كل ماتواسونهم به وتنفقونه لن يُنْسَى لكم أبدا ، وسيظل هذا الجيل يحفظه لكم ويحمدكم عليه ، والله يجزيكم خير الجزاء لهذا العمل البارّ الذى لا شك فى أنه عمل صالح ، وسيتقبَّله الله منكم . وتنزل بأم دورمان سيول كاسحة ويرثيها مدثِّر اليوشى ، ومن قوله[5] :

---

(١) شعراء السودان ص ١٨١ .
(٢) وبل : مطر . سارية السحابة ليلا . هطول : شديد الانصباب .
(٣) طاحت : ترامت : أقوى : أقفر .
(٤) متبول : مذهول .
(٥) شعراء السودان ص ٣٣٨ .

هَمرَ الرُّكامُ فسامَ أزهارَ الرُّبى خَسْفًا وعاثَ بروضةٍ ووهادِ[1]
تُذْرى الدماءَ على الخدود أرامِلٌ يندبن خشيةَ ضيعةِ الأولادِ[2]
عَبَس الزمانُ بوجههم فأذاقهم ما لم يُذقه مكبَّلَ الأصفادِ[3]
مَنْ ذا يُسَرِّى همَّهم ويريحهم من نقمةٍ طرقَتْهُمُ وعَوادى[4]
فالغيثُ قد أخطا وما يدرى أبِا لأرضِ السويَّةِ سال أم بالوادى
لكنَّه حُمَّ القضاءُ لتعلموا أن الحياة معونةٌ وأيادى[5]

ومدثر يذكر أن ركام المطر انهمر انهمارا شديدا فأنزل بأزهار الربى خسفا وهوانا وعاث فسادا بالرياض والوهاد ، وسالت دموع الأرامل دماء على خدودها يندبن ويبكين خوفا من ضيعة الأولاد . ويقول إن الزمان عبس وتجهم فى وجوههم فأذاقهم من ضنك العيش ما لم يذقه المكبّل بالأغلال ، ويهتف الشاعر فى الناس : من ذا يزيل همومهم ويريحهم من عذاب هذه الكارثة التى نزلت بهم ومن عوادى الدهر ونوائبه ، ويذكر أن الغيث أخطأ ، وسقط دون أن يدرى أيسقط على أم درمان أو على واد من الوديان ، ويهتف فى قومه : لقد حُمَّ القضاء وقُدِّر ، لتعلموا أن الحياة معونة ومنن سابغة ، فواجب عليكم أن تسعفوا أهل أم درمان أشقَّاءكم ، وتعينوهم بالمنن والنعم الوافرة .

(١) ركام المطر : ما تراكم منه . سامه خسفا : أنزل به هوانا .
(٢) تذرى : تُسيل .
(٣) عبس : تجهم . مكبَّل : من كبله أى قيده . الأصفاد : الأغلال والقيود .
(٤) يسرى : يزيل . عوادى : نوائب الزمن وكوارثه .
(٥) حم : قضى وقدر .

الفصل الرابع

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل العفيف

مر بنا فى الجزء الخاص بالعصر الإسلامى أن الغزل حينئذ كان نوعين : نوعا ماديا صريحا ونوعا عذريا عفيفا ، وشاع النوع الأول فى المدن التى تحضرت على لسان عمر بن أبى ربيعة وأضرابه ، بينما شاع النوع الثانى فى بوادى نجد والحجاز وعلى لسان فقهاء المدينة من أمثال عبد الرحمن بن أبى عمار الجشمى . ولم يعرف السودان النوع الأول الصريح الذى يصور جمال المرأة المادى وحب الشاعر الحضرى وأحاسيسه وصدوره فيه أحيانا عن الغريزة النوعية ، إنما عرف الغزل العذرى التقى الطاهر على لسان بعض شيوخه وألسنة شبابه ، لأن حياتهم كانت تقوم دائما على الخلق الكريم ومثالية الإسلام السامية . ونسوق بعض أمثلة توضح ذلك ، مع ملاحظة أن كثيرا من هذا الغزل كان ينظم فى فواتح قصائد المديح وغيره أسوة بالشعراء القدماء ، على نحو ما نجد عند الشيخ عمر الأزهرى المتوفى سنة ١٩١٥ للميلاد فى افتتاحه لنبوياته كقوله فى مطلع إحداها[1] :

بادٍ هواهُ وزائدٌ خفقانُه ... صَبٌّ تفرَّق بالنَّوى أَخْدانُه[2]
قد خانه حسنُ التصبُّر بعدما ... باتوا ووفَّتْ بالبُكا أجفانُه
عجبا لربعٍ باللِّوَى لعبتْ بهِ ... أيدى النَّوَى فتفرَّقتْ سكَّانُه
ياظاعنا يطوى الفَلا رفقًا فإنَّ ... الرَّكب ضَلَّ من السُّرَى وخَدانُه[3]
وقفِ المطىّ ولو كلمْحَةِ ناظرٍ ... فعسى المعنَّى تنطفى نيرانُه
وارحمْ محبًّا صَدْرُه ضاقت بهِ ... أسرارُه وتزايدتْ أشجانُه

وهو يذكر أن علامات الهوى من الشحوب والضنا واضحة عليه وخفقان قلبه مفرط ، إنه محب ، شتَّتَ النوى والبعاد أصدقاءه ، ولم يعد يستطيع صبرا بعد نأيهم وفراقهم وقد انهمرت الدموع من أجفانه ، ويعجب لعبث أيدى الفراق بسكان ربع باللِّوى : ربع الحبيبة ، ويهتف بالراحل مع ركبه يطوى الفيافى أن يرفق به فإن الركب ضل فى الليل بسيره السريع ،

(١) شعراء السودان ص ٢٥٢ .
(٢) أخدانه جمع خدن : الصديق .
(٣) الوخدان : ضرب من سير الابل السريع

ويقول له قف المطيّ ولو لمحة ليتملّى بجمال صاحبته ، عسى نيران الحب المشتعلة فى فؤاده تنطفىء ، ويسأله الرحمة بمحب ازدحمت فى صدره أسرار الهوى وشجونه . وللشيخ محمد عمر البنا فى صدر مدحة قوله متغزلا[1] :

أبـدًا يـؤرِّقنى عَبيرُ شَذاكِ ... ويزيدنـى قلقـا دوامُ جَفـاكِ
ويردّنى من حالة العقلا إلى ... حال الخبال تذلُّلى وإباكِ
ويزيدنا طربًا وحسنَ مسرَّةٍ ... برقٌ تألق من ضياء سَناكِ
يا ربَّة الحُسْنِ الذى فَتن الوَرَى ... أكذا يكون جزاءُ مَنْ يَهْواكِ
عذَّبتنى بالصَّدِّ والهجـران مـا ... ذنبى سوى أنى أرومُ لِقـاكِ

والشيخ محمد عمر البنا يقول إنه دائما مؤرَّق ، يؤرقه طيب عطر صاحبته وانتشاره ، ويزيده قلقا وحيرة دوام جفائها ، ويكاد يختبل عقله من كثرة تذلله لها وشدة إبائها ، وإنه ليسره ويطربه شعاع برق يتألق من ضياء نورها ، ويضرع لها قائلا : ياربَّة الحسن الذى فتنت به الناس أهكذا تجزين من يحبك ، لقد عذَّبتنى بالصد والهجران ولا ذنب لى سوى أنى أريد لقاءك لأروى الظمأ الحار إلى هذا اللقاء . ويلقانا معاصره الشيخ أبو القاسم أحمد هاشم وسنفرد له ترجمة ، ويقول الشيخ مجذوب جلال الدين المدرس بالقسم الثانوى بكلية غردون متغزلا[2] :

ملك النُّهَى والملكُ بعضُ صفاتِه ... رِيمٌ أغنُّ يَتيـــه بين لِداتــهِ[3]
رَشَأٌ شَدَا فَزِعا لأنى رُعْته ... إذ جئتــه وفَزِعْتُ من لفتاتــهِ[4]
نشوانُ من خَمْر الدَّلال حسبتُه ... هاروتَ كلَّ السحر فى لحظاتِهِ
وسَنانُ كامـلُ يقظـةٍ لكنــه ... كسرَ الجفونَ لكسْر قلب دعاتِهِ
كسلانُ أنشطُ من رأيتَ إذا أحـ ... ـسَّ بهائـــم متعشِّق لصفاتـــه
ضَمَّتْ جوانحـه اللطيفةُ صَخْرةً ... هى قلبـــه هيهـــات لينُ صَفاتِهِ[5]
يا نَرْجِسًا يَسْقى لـروض خدودهِ ... كَفْكِفْ لنجنى الـــوردَ من ثمراتـه

والشيخ مجذوب يقول عن صاحبته إنها ظبى فى صوته غُنَّة يتيه دلالا وجمالا بين لداته ، إنها ظبى لايزال صغيرا ، ترنَّم بصوته فزعا لأنه خاف حين رآنى ، وذُعرت من كثرة لفتاته ، وحسبته منتشيا من خمر الدلال كأنه هاروت وكل السحر فى لحظاته . ويُرَى كأنه وسنان لفتور عينية وهو كامل اليقظة ، وكأنما كَسَرَ جفونه – كما يقول – لكسر قلوب محبيه ، ويظن أن به كسلا وهو أنشط ما يكون إذار أى صبًّا عاشقا له ، وقد ضم بين جوانحه قلبا كأنه

(١) شعراء السودان ص ٢٨١ .
(٢) شعراء السودان ص ٢٦٥ .
(٣) ريم : ظبى . أغن : بصوته غنة . لداته : أترابه .
(٤) رشأ : ظبى صغير . شدا : ترنم .
(٥) الصفاة :حجر أملس عريض .

صخرة أو صفاة أو حجر لا يلين أبدا . ويُذْرى الدَّمع كأنما يريد أن يسقى روض خدوده ، ويقول له قف الدمع لنجنى الورد من روض الخدود البديع . ويقول صالح[1] عبد القادر :

وغـزالٍ همتُ فيـــهِ أسْهَرَ العـينَ ونامـا
ما كفاه الهجرُ حتى حرَم العـينَ المنـاما
هو عمدا نكث العَهْـ ـدَ ولم يَرْعَ الذِّماما
لا تلوموا ذا شجونٍ سنّ للنـــاس الغرامـا
كلما نـــاح اشتياقًا علَّـم النَّـوْحَ الحماما

وصالح عبد القادر هام بغزال أسهره ، وكأنما لم يكفه الهجران ، فحرم عينيه النوم ، وقد نقض العهد ولم يرع الذمام والميثاق ، ويقول لقومه لا تلوموا محبا شَرع للناس سنن الحب وكلما ناح اشتياقا وولعا وهياما خُيِّل إلى سامعه كأنما هو الذى علم الحمام النوح والعويل . ويقول عثمان هاشم متغزلا[2] :

يا ظَبْيُ هل لأسير لَحْظِك فادى أم لافكَاكَ لـه من الأصْفـادِ[3]
جَرَّدت من لَحْظَيْك عَضْبًا فاتكا وهززتـــه ففتكتَ بالآســـادِ[4]
نلتَ المنى فى الحسن أنت ولم أَنَلْ من طيب وَصْلك بُغْيتى ومرادى
لولا الحياءُ لقادنى لك فى الدُّجَى شوقٌ أذاب حُشاشتى وفؤادى[5]

وهو يسأل صاحبته هل يوجد من يفدى أسيرا لعينيك الجميلتين أم لا خلاص له من أغلال هذا الأسر وقيوده ، ويقول : لقد سللت من عينيك سيفا قاطعا ، وفتكت بالأسد الشجاع ، ولقد نلت فى الحسن كل ما تمنيت ، ولم أنل شيبا من طيب وصلك ، ولولا حيائى لقادنى إليك فى الليل شوق أذاب منى الحشاشة والفؤاد . ويقول الشيخ محمد سعيد العباسى[6] :

بالله يـا حُلْوَ اللَّمـا مالك تجفو مُغْرَمًا[7]
صددتَ عنى ظالمًا أفديك يا من ظَلما
هلا ذكرتَ يا رَشَا عَيْشًا تَقضَّى بالحِمَى
رفقا بصبٍّ راح يَهْـ ـوَى طَيْفَك المسلَّما
إن شامَ من نحوكُمُ برقا أقـــام مأتما[8]
ويكتم الوَجْـدَ وكم يَغْلِبُـــــه أنْ يُكْتَما

(١) شعراء السودان ص ١٤٩ .
(٢) شعراء السودان ص ٢٢١ .
(٣) الأصفاد : الأغلال .
(٤) جردت: سللت. عضبا: سيفاحادا .فاتكا : قاطعا .
(٥) حشاشتى : بقية روحى .
(٦) نفثات البراع ص ١٣٦ وشعراء السودان ص ٢٩٥ وكتاب محمد سعيد العباسى ص ١٩٧ وراجع ديوانه .
(٧) اللما : سمرة فى الشفة .
(٨) شام : رأى .

والغزل عذب رقيق رقة مفرطة ، وهو يستهله باستحلافه لحلو اللما أو سمرة الشفة ماله يجفو صبًّا مغرما به . ومع أنه يصد عنه ظالما يفديه بروحه ، ويذكِّره بعيشٍ وأيام مرت بالحمى ، ويقول له : ارفق بصبٍّ ، لم يعد له إلا طيفك فى الحلم يهواه ، وإن رأى برقا لمع من أفقكم ندب وبكى طويلا ، ويكتم الوجد والهيام وكم يغلبه كتمانه . ويمضى فى القصيدة منشدا :

لله محبـــوبٌ رأى حبَّـــةَ قلبـى فـرَمَى
أعـيذهُ من جائـرٍ حكَّمْتـــهُ فاحتكما[1]
لقيتُـــه فى أربـــعٍ بيضٍ كأمثـال الدُّما
شابهنَ أزهـــار الرُّبـــ ـع وحكين الأنجما
وقفـــتُ فاستسقيتُـــه وشدَّ ما بى مِنْ ظَما
جاء بمـــاءٍ قلت هـل حاجةٌ مثلى منك ما[2]

وهو يشكو محبوبه لربه فقد أبصر سويداء قلبه وفؤاده فرماه ، ويعيذه أن يكون ظالما فقد حكَّمه فتصرف حسب هواه ومشيئته . ويقول إنه لقيها فى أربع جميلات من حولها كأمثال الدُّمَى البديعة ، شابَهْنَ أزهار الربيع العاطرة والأنجم الساطعة ، وطلب منها جرعة ماء تشفى ظمأه ، وجاءته بالماء ، فقال لها مداعبا :وهل حاجة الصبِّ المغرم مثلى منك إلى ماء ؟ ! . وهو يسترسل فى القصيدة من هذا الحب للفتاة إلى حبه لمصر التى قضى فيها فترة من شبابه ، فملكت عليه ذات نفسه ، وظل يمجِّدها ويتغنى بها غناء حارا طوال حياته فى أشعاره وقصائده الرائعة . ونتوقف قليلا لنترجم للشيخ الجليل أبى القاسم أحمد هاشم ، ونعرض بعض غزلياته العفيفة الطاهرة .

الشيخ أبو القاسم[3] أحمد هاشم وغزله العذرى العفيف

ولد فى « برى » إحدى ضواحى الخرطوم سنة ١٢٨٧ هـ/١٨٦١ م وهو من بيت شيوخ دين وقضاة ينتمون إلى العباس بن عبد المطلب ، وألحقه أبوه الشيخ أحمد هاشم بقرَّاء حفَّظوه القرآن الكريم ، وحفظه وهو فى العاشرة من عمره ، وانتقل أبوه إلى بربر قاضيا لمديريَّتها ، وألحقه بمدرستها ، حتى إذا اشتد عوده قليلا أخذ يدرس العلوم الدينية واللغوية على أستاذه الشيخ محمد الخير عبد الله ، ثم على أستاذه الحسنى السيد حسين المجدى الأزهرى ، وعليه درس النحو وكتاب جمع الجوامع فى الأصول . حتى إذا نضج علميا عُيِّن مدرسا بجامع بربر واستولى عليها المهدى فقرَّبه منه واتخذه كاتبا له ، وبالمثل اتخذه خليفته عبدالله التعايشى ،

(١) احتكم هنا : تصرَّف كما يشاء .
(٢) ما : ماء .
(٣) انظر فى ترجمة أبى القاسم وشعره شعراء السودان ص ٣١ وما بعدها والشعر الحديث فى السودان للدكتور الشوش ص ١٧.

حتى إذا سقطت الدعوة المهدية وقام الحكم الثنائى المصرى الإنجليزى بالسودان عُيِّن قاضيا لمدينة سنار سنة ١٨٩٩ للميلاد . وفى سنة ١٩٠٦ نقل إلى مديرية النيل الأزرق قاضيا ، ولمكانته العلمية وسيرته الحميدة عين سنة ١٩١٢ شيخا لعلماء السودان ، وأقنع الحكومة ببناء مسجد جديد فى أم درمان وبناء معهد دينى يلحق به ، وكان المعهد قد أنشىء منذ سنة ١٩٠١ فى جامع أم درمان لتدريس العلوم الدينية ، فجعل له مبنى مستقلا ، وجعل نظام التدريس فيه مثل نظام الأزهر ، فالطلاب يختلفون فيه إلى ثلاث مراحل ، كل مرحلة أربع سنوات ، وفى السنة الأخيرة ينالون شهادة العالمية ، وكان ذلك عملا جليلا للشيخ أبى القاسم ، إذ بدأ به نهضة علمية دينية فى السودان ، وظل يتعهده نحو عشرين عاما إلى وفاته . وكان شاعرا بارعا ، وله غزليات عذرية عفيفة تارة يفردها وتارة يجعلها مقدمة لمدائحه النبوية ، ومن مقدماته لإحدى تلك المدائح قوله :

ليلى بدتْ لما أضاءَ الكوكبُ ... فمحتْ ضيَاهُ وزال عنا الغَيْهَبُ[1]
واستقبلتْ قمرَ الزمان فناله ... من حسنها الكَلَفُ الذى لا يذهب[2]
وتفرَّدت فى حُسْنها ودلالها ... وحوتْ من الأوصاف ما يُسْتَغرب
فتزاحمتْ عشاقُ حسنِ جمالها ... كلٌّ لحسن وِصالها يتطلَّب
والعشق صعبٌ لا يطيقَ صُروفَه ... إلا الذى لعذابهِ يَسْتعذبُ

والشيخ أبو القاسم يقول لما بدا ضياء وجه ليلى محا ضياء الكوكب لأنه أشد منه سطوعا ، واستقبلت القمر فناله من حسنها - خفرا وحياءً - غضون لا تفارق وجهه أبدا . ويقول إنها انفردت بحسنها ودلالها وحوت من أوصاف الجمال ما يخال مستغربا ، فتزاحمت عشاقها وكلٌّ يتمنى الوصال ، والعشق - بحق - صعب ، ولا يطيق أحواله وآلامه إلا من يجد عذابه مستعذبا حلوا . ويقول متغزلا :

فتورٌ بَجَفْنَيْ من أحبُّ سبانى ... وتوريدُ خدَّيه استطار جَنانى[4]
ورقَّة خَصْرٍ واحتشامُ شمائلٍ ... حكمن بأسْرِى واسْتَنَّ هوانى
وإن الهوى العُذْرِىَّ أيْسَرُ حاله ... توقُّدُ نيرانٍ بغير دخانِ
ولِمَّى مذ عُلِّقْتُ ليلى بخاطرى ... جفيتُ منامى وافتقدتُ الأمانى
سلاها فهل قلبى سلاها وهل جرى ... حديثٌ سواها فى فمى ولسانى

وهو يذكر أن الفتور بجفنى محبوبته أسره ، وتوريد خديها أذهله وأطار عقله ، وبالمثل رقة الخصر وحسن الخلال ، كل ذلك حكم عليه بالأسر واستنَّ هوانه . وما أشد الهوى العذرى

---

(١) الغيهب : الظلام .
(٢) كلف القمر : ما يُرَى على سطحه من بعض التغيرات .
(٤) استطار : أطار ، أذهل . الجنان : العقل .

إن أيسر أحواله توقد نيرانه فى الصدر والفؤاد ، وإنه مذ أحبَّ ليلى جفاه النوم وفقد كل أمانيه إلا أمنية وصالها ، واسألاها هل سلاها قلبى وهل نطق فمى ولسانى بحديث سواها ، إنها كل شغلى فى الحياة . ويقول :

بسمتْ عن دُرِّ ثَغْرٍ مستبينْ ... منَع البـدرَ ضياه أن يبينْ
وبدتْ للورد فى خدٍّ نَضيـ ... ـرٍ فراح الوردُ مصفرَّ الجبين
وأمالتْ قدَّها فالبانُ فى ... خجلةٍ يَضْحك منها الياسمين
ورمتْ باللَّحْظِ منهـا فأصا ... بتْ به حَبَّ قلوب العاشقين
فتراهم من جِراحات اللوا ... حظ ما بين قتيـل وطعين
هكذا مَنْ يعشق الخُودَ الحسا ... نَ يَذُقْ مرَّ الهوى عَذْبًا مَعِين[1]
وكـأن الله قد صـوَّرهـا ... من هوى الأنفسِ لا ماءٍ وطين

فصاحبته أو محبوبته بسمت عن لآلىء ثغر واضح منع ضياء البدر أن يبين ، وبدا للورد خدها الناضر فصار مصفرَّ الجبين حياء وخجلا ، وأمالت قدها الممشوق فخجل شجر البان المشهور بقدِّه الجميل خجلا يَضْحك منه الياسمين ، ورمت بسهام لحظها فأصابت به أفئدة العاشقين ، فتراهم من جراح السهام ما بين قتيل وجريح طعين . وهكذا من يعشق الفاتنات الحسان يذق مر الهوى ، ويصبح فى فمه عذبا سائغا ، وكأن الله صورها من هوى الأنفس ومحبتها لا من ماء وطين كغيرها من البشر ، إنها ملاك إنسى . ويقول متغزلا :

تجنَّى على مقتولـه وتجرَّمـا ... أشأنُ غزالِ الحسن أن يُهْدر الدَّما
وما حيلتى والقلبُ أسْرُ لحاظها ... ومهمـا رنتْ مـال الضمـير مسلِّما
فإن أقبلتْ فالجنَّـة الخُلْدُ نُزِّلـهُ ... وإن أعرضَتْ قد حَلَّ نُـزْلا جَهنَّما[2]
فكيف خلاصى يا رفاقى ودَأْبُها الـ ... ـصُّدودُ ورُكْن الصَّبر منى تهدَّما
وإن قلت إنى صادق الوُدِّ والوفا ... تقول ألا مُتْ فى صدودى متيَّما
وحِرْتُ لأنى لم أجد مِنْ عَنَا الهوى ... خلاصا فأنجو أو إلى الوصل سُلِّما
وحسبىَ أن أحْظَى بطيفِ خيالهـا ... إذا هى لـم تسمح بوصلى تكرُّمـا

والشيخ أبو القاسم يذكر أن صاحبته تجنت على قتيلها بسهام عينيها ، وهل ذلك شأن الغزال الجميل أن يهدر الدماء ، ويقول ما حيلتى وقد أسرت القلب بلحاظها ، والضمير دائما مسلِّم لها مستسلم ، وإن هى أقبلت أحسَّ القلب كأنه فى منزل من منازل الجنة ، وإن هى أعرضت أحسَّ كأنه فى منزل من منازل الجحيم ، فكيف خلاصه ودأبها دائما الصدود

(١) معين : سائغ .
(٢) نزلا : منزلا .

والهجران وقد تهدم منه ركن الصبر الجميل ؟ . وإن قال لها ضارعا إنى صادق الحب والوفا قالت له : مت فى هجرانى متيما بى عاشقا ، وحارّ لأنه لم يجد خلاصا من شقائه بحبها ولا طريقا إلى وصالها ، ويعود إلى نفسه قائلا : حسبى أن أحظى بطيف خيالها فى الحلم ، مادامت لا تسمح بوصلها كرما وعطفا على العاشق الولهان . وغزليات الشيخ أبى القاسم – كما رأينا – سلسة عذبة . وهى غزليات حب عذرى عفيف نقى سام ، فى لغة سهلة وموسيقى وافرة حلوة .

٢

شعراء النقد العنيف والشكوى من الزمن

أخذ الشباب السودانى الطامح فى الربع الأول من القرن الحاضر يشعر شعورًا عميقًا بالآلام التى تعيشها أمته وأثقالها ، واقترن ذلك فى نفسه بيأس من أن تتحقق آماله ، وبذلك اجتمع عليه الإحساس بمرارة حياته ، والإحساس بمرارة حياة أمته ، أما مرارة حياته فقد عبر عنها الشاعر السودانى بشكوى طويلة من الزمن ، وأما مرارة حياة أمته فقد عبر عنها بنقد صارخ صوَّر فيه قعودها عن المطالبة بحقوقها ، وهو تارة يعرض على الشباب مجد آبائه الأولين لعله يحاكيهم ويسترد شيئا من مجدهم ، وتارة ثانية يعرض عليه عيوبه الاجتماعية والأخلاقية كى يتخلَّص منها ويسترد كرامته ومكانته الخليقة به ، وممن يتردد على لسانهم اللونان من النقد والشكوى من الزمن محمود أنيس المولود سنة ١٨٩٣ للميلاد ، إذ ينشد فى حفل للمولد النبوى سنة ١٣٤٠هـ/١٩٢٢م قوله فى مدحة نبوية[1] :

زُرِعَ الجفاءُ بنا وأثمر غرسهُ ... فتنافر الأبنـــاء والآبـــاءُ
وتفاخرتْ بالموبقات صغارُنا ... وشيوخُنا فَهزَا بنا الأعداءُ
وتسايلتْ منا النفوسُ حزينةً ... جَرْحَى ونال جميعَنا الإعياءُ
واهًا على الإسـلام ماذا نابـه ... وهُو الشفاءُ ومـا سواه شفاء

وهو يقول إن الجفاء غُرس بيننا جميعا وتنافرنا حتى لقد تنافر الأبناء والآباء ، وأعجب العجب أن يفاخر الشباب والشيوخ باقتراف المحرمات مما جعل الأعداء تهزأ بنا هزءًا شديدًا ، وإننا ليشملنا حزن بالغ حتى لكأننا جرحى ، بل لقد نالنا جميعا الإعياء ، فواحسرتا على الإسلام ماذا أصابه ، وهو الشفاء والبلسم لكل النفوس . وعلى نفس هذه القيثارة يقول عبد الرحمن شوقى فى ذكرى الهجرة بالسنة التالية[2] :

---

(١) شعراء السودان ص ٣٢٥ .

(٢) نفثات اليراع ص ١٨٤ وشعراء السودان ص ٢٠٤ وراجع حديث الدكتور الشوش عن الشاعر فى كتابه الشعر الحديث فى السودان .

تبيتُ على الهمِّ الممضِّ نفوسُنا ... وتمشى على جَمْرٍ من الذل أُضْرِما
ننامُ وملءُ العين همٌّ وحسرةٌ ... وأعْيُننا حزنًا تفيض لنا دما
فياليت شعرى هل أرى النيل جاريا ... طليقا كدمعى إذ يسيل مُعَنْدما[1]
وهل سأرى يومًا عن الغاب أسْدُهُ ... تذودُ إذا ما الليل فى الغاب أظلما
وهل يُرْتَجَى الإصلاحُ والشعب نائمٌ ... وهل يبلغ الآمالَ من كان نائما
ولِمْ لا أرى ما بيننا غير صامتٍ ... وقد آن للأحجار أن تتكلَّما

ونفس عبد الرحمن شوقى ونفوس أمثاله من أبناء وطنه تبيت مسهدة على هم مؤلم غاية الألم ، وكأنما إذا مشت تمشى على جمر مشتعل من الذل ، وإذا ناموا ينامون وعيونهم ملأى بالهموم والحسرات على وطنهم مكتظة حزنا لا بالدموع ولكن بدماء القلوب والأفئدة . ويتساءل هل سيرى أهل النيل طلقاء من الأسر ، والنيل يجرى محملا بذهب الطَّمْى الأحمر كعادته ، وهل سيذود أسد الغاب عن عرينه الذى خيَّم عليه الظلام . وغمره اليأس ، فالشعب نائم ، والنائم لا يبلغ أملا من آماله ، ويعجب لصمت من حوله من أهل السودان بينما توشك الأحجار الخرساء على النطق بآمال الشعب وأمانيه . ويصرخ فى قصيدة ثانية[2] :

مضى زمانٌ وقلبى ممتلٍ ألَمًا ... وفى فؤادى أسىً كالنار مضطرما
حزنا على أمةٍ بالنيل نائمةٍ ... تشكو الأُوَار وأخشى أن تموت ظَمَا

فقد مر به زمان طويل وقلبه مكتظ بالألم وفؤاده ملىء بلواعج أسى مشتعل كالنار الحامية حزنا على أمته النائمة فى وديان النيل تشكو حرارة العطش ولهبه المتقد ، ويشفق لها الشاعر شفقة حزينة إذ يخشى عليها من الموت ظمأ والماء مدّ أيديها وتحت أبصارها . ومثل هذا النقد العنيف كثير فى الشعر السودانى وسنترجم فيه للشيخ عبدالله محمد عمر البنا بعد قليل . ويقول الشيخ حسيب داعيا عناصر الأمة السودانية إلى وقف ما بينها من تناحر شديد[3] :

الإتحادُ هو الحياةُ وإنما ... موتُ الشعوب تفرُّق الأفرادِ
كم أمةٍ نهضتْ به فتمتعت ... بحياتها من بعد ما استعبادِ
ولكم تَرَى من قُوَّةٍ ومالكٍ ... نزل الشقاقُ بها لشَرِّ مِهادِ
تلك الشعوبُ تروم جَمْع شتاتها ... وهنا نَبيع الجمعَ بالآحَادِ
إنى سئمتُ النُّصْحَ غيرَ مؤثِّرٍ ... وعتابَ قومٍ فى سِنات رُقادِ

وهو يدعو قومه السودانيين إلى الاتحاد ، ويقول إن الشعوب لا تحيا بدونه إذ بدونه تفقد حياتها وتموت إلى الأبد ، وكم من أمة نهضت بالاتحاد فاستمتعت بحياتها لتخلصها من نير

(١) معندما : دما أحمر .
(٢) نفثات اليراع ص ١٨٧ وشعراء السودان ص ٢٠٤ .
(٣) شعراء السودان ص١٢٣ وانظر ترجمته عند الدكتور الشوش فى كتابه الشعر الحديث فى السودان ص ١١٥ .

الاستعباد ، وكم من ممالك حدث بين أهلها الشقاق فوقعت فى شر أعمالها ، ولذلك تعمل جميع الشعوب على الاتحاد الدائم بين أبنائها ، بينما نحن ننقسم ونتفرق . ولقد سئمت تقديم نصحى لأمتى إذ أراه غير مؤثر ، وكأنى أنصح وأعاتب قومًا نياما . ويقول شاكيا من الزمن وهمومه وتناوبها له همًّا من وراء هم[1] :

أَلِفَ الهمـــومَ برغمه وأَلِفْنَهُ فَغَـدا بـوادٍ والسُّرورُ بـوادِى
لا تستقرُّ رِكابهُ فى بلـدةٍ حتى ينـادى بالرحيـل مُنـادِى
وكأننـى كـرةٌ ودهـرى لاعبٌ يرمى بهـا الحَدَثـان باستبـدادِ
ليصيبها بى بل بهـا ليصيبنى والدهـر أرمى لاعبٍ ومُعـادِ
لكنـه مهما ارتقى لا يرتقى لينـال من صبرى بِـذا الإسآد[2]
إن شـاب رأسى بالخطوب فلم يَشِبْ عزمـى الفتىُّ ولا ذكـىُّ فـؤادى

وكان الشيخ حسين قد وُظِّف كاتبا فى المحاكم الشرعية ، وكان رؤساؤه ينقلونه من محكمة إلى أخرى فى أنحاء السودان . وهو يقول إنه أصبح – منذ توظف – تربا للهموم يألفها وتألفه ، وفارقه السرور ، وكأنما غدا بواد والسرور بواد آخر . ويشكو من كثرة تنقلاته فى وظيفته ، فلا يكاد يستقر فى بلدة حتى يؤمر بمبارحتها إلى بلدة أخرى ، وكأنما أصبح كرة يلعب بها الزمان ، ويرمى بالنوائب والأحداث ليصيبها بى ، بل ليصيبنى بها ، والدهر أرمى لاعب ومُعادٍ ، ولكنه مهما صنع ومهما رمانى ليلا أو نهارًا فلن ينال من صبرى ، وحتى لو شاب رأسى لما ينزل بى من خطوب فلن يشيب عزمى القوى ولا فؤادى الذكى . وله قصيدة يشكو فيها من مرتبه الضئيل ساخرا ، وفيها يقول مخاطبا لمرتبه[3] :

أمرتبـى مـالى أرا ك قصُرْتَ عن نَيْل المرادْ
أشكوك أم أشكو إليـ ـك نوازلَ المحن الشِّداد
الجَيْبُ خـالٍ أبيضٌ وبياضُـه عين السَّواد
إن رمتُ صبرا عزَّنى وأمضَّنى طـولُ السُّهاد[4]
أو رُمْتُ قَرْضًا ردَّنى عنه الحيـاءُ من العبـادْ
أو هكـذا حـظُّ الأُلَى طلبـوا المعـالى بالمِدادْ

وهو يذكر لمرتبه أنه لا يكفيه لنيل المراد المطلوب ، ولا يدرى أيشكوه أم يشكو إليه ما ينزل به من المحن الصعاب ، فجيبه خال أبيض لبيس فيه أى نقود وهو بياض فى الظاهر لكنه فى حقيقته أشد من السواد ، وإن طلبت صبرا عزنى ولم أستطعه ، أو فكرت فى قرض ردَّنى

(١) شعراء السودان ص ١٢٤ .
(٢) الإسآد : السير ليلا ويريد نزول الهموم به .
(٣) شعراء السودان ص ١١٨ .
(٤) عزنى : قهرنى . أمضنى : آلمنى .

الحياء عن طلبه من الناس . ونتوقف لنترجم للشيخ عبد الله البنا أحد شعراء النقد العنيف لأمته ، ولصالح عبد القادر المشارك فى النقد العنيف والشكوى من الزمن .

الشيخ عبد الله[1] البنا

هو نجل الشاعر الشيخ محمد عمر البنا المترجم له بين شعراء المديح ، رزق به سنة ١٣٠٨ هـ/١٨٩١ م وحفظ القرآن الكريم فى بيته ، ثم انتظم فى مدرسة رفاعة الأولية ، وتخرج فيها فالتحق بقسم المعلمين فى كلية غردون وتخرج فيه سنة ١٩١٢ واشتغل مدرسا بالكلية فترة ثم عمل فى مدرسة أم درمان . ويقول الأستاذ على الملك محقق ديوانه : « آخر عهده أنه كان رئيس شعبة اللغة العربية فى المدارس العليا » . وقد تفتحت ملكته الشعرية مبكرة ، وسرعان ما تألق اسمه مع علمين فى الشعر هما محمد سعيد العباسى وعبد الله عبد الرحمن وهم شعراء أفذاذ وتسنمّ الثلاثة ذروة الشعر السودانى فى النصف الأول من القرن الحالى ، ولكل منهم ديوان منشور يدل على شاعرية فذة . وكما تقيدنا فى الشاعر الشيخ محمد سعيد العباسى بما نشر من شعره قبل نهاية هذا العصر الذى نؤرخ له حتى سنة ١٩٢٤ للميلاد كذلك سنصنع بالشيخ عبد الله البنا مع أن له فرائد كثيرة مثل زميليه بعد هذا العصر .ومن أروع ما أنشده له صاحب شعراء السودان ومحمد عبد الرحيم فى كتابه نفثات اليراع قصيدته[2] فى ذكرى الهجرة النبوية التى دوّت شهرتها ، وهى فى مخاطبة الهلال الذى أهلّ ليلة رأس السنة الهجرية ، وله يقول :

ياذا الهلال عن الدنيا أو الدينِ ... حَدِّثْ فإن حديثا منك يَشْفينى
خَبِّرْ عن الأُعْصُرِ الأولى لتضحكنى ... فإن أخبار هذا العصرِ تُبكينى

وهو يسأل الهلال أن يحدثه عن الدين أو الدنيا حتى يشفى نفسه من آلامها إزاء السودان وشعبه وأحواله ، وحتى يدخل السرور على نفسه المكلومة الباكية من أخبار السودان وأبنائه . ويرفع أمام أبصار السودانيين سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وعمر الفاروق ودمشق وبغداد وخلفائهما الذين أتاحوا للإسلام والعروبة مجدا عظيما ، لعل شيئا من سيرتهم يعود ، ويظهر من يحقق للأمة السودانية أو للأمة العربية عامة شيئا من هذا المجد ، ويتجه بالخطاب إلى الشعب السودانى منشدا :

---

(١) انظر فى ترجمة الشيخ عبدالله البنا وشعره كتاب شعراء السودان ص ١٥٧ وكتاب نفثات اليراع ص١٢٩ وكتاب الشعر الحديث فى السودان للدكتور محمد إبراهيم الشوش ص ٥١ وفى مواضع مختلفة وكتاب تاريخ الثقافة العربية فى السودان فى مواضع متعددة (انظر الفهرس) . وله ديوان باسم ديوان البنا (طبع الخرطوم) .

(٢) انظر القصيدة أيضا فى كتاب شعراء الوطنية فى السودان ص ٣٤١ والديوان ٦٤/١ .

أحبَّتى ودعـــاءُ الحبِّ مرحمـــةٌ ... لا يُحْزِنَنَّكُمُ بالنُصْح تلقينى
تَرْضَون بالدُّون والعلياءُ تُقْسم لا ... تدين يوما لراضى النفس بالدونِ
والمجدُ ينأى فلا تدنو مراكبُه ... من الجبـــان ولا ينقاد بالهونِ[1]
تفـــرقٌ وتـــوانٍ واتبـــاعُ هَوًى ... إن الهوى لهوانٌ غيرُ مأمون
ولا اعتبـــارٌ ولا رُقْبى لنازلـــةٍ ... ولا احتيـــاطٌ ولا رُحْمَى لمغبون

وهو ينادى قومه قبل تقديم النقد العنيف لهم بقوله : « أحبتى » تلطفا وجذبا لهم كى يستمعوا إلى نقده لهم ونصحه ويصدروا عنه ،ويقول لهم إنه قول غليظ ولكن باطنه الرحمة ويسجل عليهم أنهم يرضون بالدون ، والعلياء لا تخضع لمن يرضى به ، والمجد يبعد عنه إذ لا تقرب مراكبه من الجبان ولا ممن يرضى بالهون والهوان ، وهل شأنكم إلا تفرق وتشتت وتوان ، والرجوع إلى الهوى فى حياتكم ، وما الهوى إلا ذل ما بعده ذل ، ولا اعتبار ولا عظة ولا مراقبة لنازلة نزلت بكم ، ولا احتياط ولا حذر ، ولا رحمة لمغبون أو ضعيف واهن . ويهتف بأمته :

يا أمةً جهلتْ طُرُقَ العلاء فلم ... تسبق لغاية معقـــولٍ ومخـــزونِ
وللمدارس هِجْـــرانٌ وسُخْرِيـــةٌ ... وللمتاجـــر ضعفٌ غير موزونِ
وللمفاســـد إســـراعٌ وتلبيـــةٌ ... ولا التفاتَ لمفـــروضٍ ومَسْنونِ
والناسُ فى القطر أشـــياءٌ ملفَّقةٌ ... فإن تكشَّفْ فعَنْ ضَعْفٍ وتوهينِ
فمن غنىٌّ فقـــيرٍ فى مـــروءتهِ ... ومن قوىٌّ بضعف النفس مرهونِ
ومن طليـقِ حَبيسِ الـــرأى منقبضٍ ... فاعجبْ لمنطلق فى الأرض مسجونِ

وهو يقول لأمته إنك جهلت طرق العلاء والشرف ، فلم تجر فيها للوصول إلى غاية معقولة أو مخزونه تنتظرك ، وإنك لتهجرين المدارس بل تسخرين منها ، ولا تهتمين بمزاولة التجارة ، فالمتاجر ضعيفة ضعفا شديدا ، وتسرعين إلى المفاسد ، بل ما أشد تلبيتك لها ، دون أى التفات لواجباتك الدينية وما عليك من الفروض والنوافل . ويبلغ بالشاعر السخط أن يسمى أهل السودان أشياء ملفقة ، وكلما تكشف جانب منها ظهر فيه الوهن والضعف ، وهل بها إلا غنى فقير أشد الفقر فى مروءته فلا يمد يدا إلى البؤساء وإلا قوى ضعيف النفس ذليل مَهين ،وحتى الحر الطليق يحبس رأيه عن أمته ، وكأنه ليس حرا طليقا بل سجينا مكبلا بالأغلال . ويكثر مثل هذا النقد يوجهه الشيخ عبدالله البنا إلى قومه السودانيين معبرا عن نفسه السودانية الطامحة إلى أن تأخذ أمته السودانية مكانتها فى العالمين . وهو مهما قرَّع وصوَّر من عيوب المجتمع السودانى إنما يريد أن يستثير حمية السودانيين لكى يتحدوا ويطلبوا كل ما تطلبه النفوس

---

(١) الهون : الهوان .

الكريمة من العلاء والشرف والعلم ، وينصرفوا عن الملاهى والمفاسد ، ويؤدوا واجباتهم الدينية من الفروض والسنن ، حتى تصبح حياة الشعب عزيزة كريمة ، وحتى يشعر كل غنى بواجبه من عون أخيه الفقير ، وحتى لا يقعد القوى عن قيامه بواجبه لأمته ، وحتى لا ينقبض سودانى عن بيان رأيه السديد فى كل ما يعود على الأمة السودانية بالخير . وينشد له صاحب كتاب الشعر فى السودان قصيدة[1] طويلة بعنوان : دمعة على اللغة العربية ، وهو فيها يعرض ازدهارها وعلماءها وشعراءها النابهين ورجالاتها فى العصور الماضية ، ويطيل فى بكائها وعويله على ما صارت إليه فى العصر الحاضر من ضيم شديد ، ويرد ذلك إلى ما أصاب أبناءها من النوم والهوان ، يقول :

أطلتُ عَتْبى على الأيام حين جَنَتْ ... عليكِ فاستلبتْ أبهى مزاياكِ
ولـو أجابتْ لقالتْ إنهم نفرٌ ... ناموا فحالتْ بما ناموا سجاياكِ
ولو أجابت لقالتْ إن قومكِ قد ... رضوا الهوان فطالتْ فيه سُكناكِ
لـو قَـدَّروكِ لعادتْ فيـك ناضرةً ... روحُ الحيـــاة وسَرَّ الكونَ محياكِ

وهو يقول للغة العربية التى يبكيها فى قصيدته إنه أطال عتابه على الأيام لما جنت عليها وسلبتها بلاغتها الرائعة ، ويقول إن الأيام لو أجابت على هذه التهمة لتعللت بأن أبناءها ناموا على النهوض بها فتغيرت روعتها البيانية ، بل لتعللت بأنهم رضوا الهوان ، فطال سكناها له معهم ، ولو قدَّروها فى عصرنا حق قدرها لعادت روح الحياة فى أعطاف جسمها ناضرة ، وسرَّ الكونَ عودُتها إلى الحياة . والشاعر بذلك يستثير قومه للنهوض بالعربية ، فينعتهم بالنوم والهوان كى يثوروا غضبا ويحققوا للعربية كل ما يمكن من ازدهار ورونق وبهاء . وللشاعر نبويات متعددة منها نبوية طويلة شطر فيها بردة البوصيرى ، وله أيضا شعر اجتماعى كثير .

صالح[2] عبد القادر

لا نعرف شيئا عن نشأته ، غير أنه درس فى كلية غردون ، مثل كثير من الشعراء المعاصرين له ، وعكف فيها على قراءة كتب الأدب ودواوين الشعر واستيقظت فيه ملكة الشعر ، وتخرج فيها وعمل موظفا بالبريد . وتغلب على أشعاره مسحة الحزن والشكوى ، ويقول محمد عبد الرحيم إنه كان دائما فى صراع مع الأيام ، يعانى من نكد العيش . ويقول الأستاذ مصطفى طيب الأسماء إنه ممن شُرِّدوا وسُجنوا فى سبيل الوطنية، واعتُقل بمصر متهما بالاشتراك فى قتل

(١) انظر القصيدة فى ديوان البنا ٩٦/١ .
(٢) انظر فى ترجمة صالح عبد القادر وشعره نفثات اليراع ص ١٥٣ ، وشعراء السودان ص ١٤٧ ، والشعر الحديث فى السودان للدكتور محمد إبراهيم الشوش ص ١١٠ وكتاب دور الأدب فى النضال الوطنى فى السودان لمصطفى طيب الأسماء ص ٣١ .

السيرلى ستاك : حاكم السودان وسردار الجيش المصرى هناك ، وثبتت براءته فُردَّت إليه حريته . وشعره يتوزع بين نقد عنيف لأمته وشكوى صارخة من الزمن ، ومن النوع الأول قوله فى قومه : أهل السودان :

قومٌ قيامُ الفضل بين صدورهم ... كقيام هـودٍ بين أمـةِ هودِ
لا يشعرون بما ألمَّ بشعبهم ... فكأنما قُـدُّوا من الجُلْمود[1]
ومن الحجارة ما يلين وإنهم ... لا يعبأون بقـارص التنديد[2]
يا أمةً غفلتْ وطـالَ جُمودها ... ماذا كسبتِ بغفلـةٍ وجمـودِ

وهو يبالغ فى استثارته لأمته فيقول إن قومه لا يمكن أن يؤتى الفضل ثماره بينهم فمثله فيهم كمثل هود فى قومه لا يشعرون أى شعور بما حل بهم من هوان ، وكأنما خلقوا من صخر ، ومن الصخر والحجارة ما يلين أما هم فلا يلينون ولا يحفلون بأى تنديد مهما كان شديدا عنيفا ، ويقول إنهم أحالوا دنيانا شقاءً وأغلالا ، ويهتف بأمته ضَجِرًا غاضبا ناعتا لها بالغفلة والجمود . ودائما كان يشكو من الزمن وما ينزل به من الكوارث والخطوب ، وإنه ليصرخ :

ألا هلِ معينٌ أو مواسٍ فأشتكى ... إليه همومًا بِتُّ عفوا لها مُلْقَى
إلى الدَّهر أشكو وهْوَ عنِّىَ معرضٌ ... أصمُّ فلم يسمعْ ولم يحسن النُّطْقَا
صموتٌ ويقضى كلَّ ما لا أريدُه ... فيا بئسَ ما يَقْضى ويا شرَّ ما ألقَى
وأسأله سلمًا فيَشْهَرُ سَيْفه ... فيا دهرُ ما أقسى ويا بؤس ما أبقى
تحملتُ طفلا منك كلَّ عظيمةٍ ... وما العدلُ أنى بعد ذا عَلْقَمًا أُسْقَى
وتطلـبُ منى أن أغـيِّر مَبْدئِـى ... فيا بُعْدَ مطلوبٍ بهِ طارتِ العَنْقا[3]

وهو يتمنى معينًا له أو مواسيا ليشتكى إليه هموما ثقالا باتت جاثمة على صدره ، ويقول إنه يشكو إلى الدهر ، والدهر معرض عنه كأنه أصم لا يسمع ولا ينطق ، صامت ويقضى بكل ما لا أريده ، فذمًّا لما يقضى به ويا شر ما ألقى من الآلام الطوال ، وأضرع إليه أن يسالمنى فيشهر سيفه ويسلّه لحربى ، فما أقساه ويا بؤس ما أبقاه منى وقد تحملت كوارثه فى طفولتى وليس عدلا أن يظل ينهكنى ويسقينى علقما مرا . ويطلب إليه الدهر أن يغير مبادئه حتى يجد عونا من بعض أصحاب الأمر والجاه ، فيقول إن ذلك مستحيل ، ويا بُعْدَ هذا الطلب الذى طارت به العنقاء إلى غير مآب . ويعود إلى الشكوى من الدهر منشدا :

---

(١) قدوا : خُلقوا .
(٢) قارص : لادغ .
(٣) العنقا : العنقاء : طائر أسطورى .

لا تَلُمْنى فتكن متَّهِمى إن عقلى لم يكن متَّهما
ولُمِ الدهرَ على تقصيره أخطأ الدهرُ وعمدًا ظلما
أبدا والله لا أعذره طالما جار وحَقًّى هضَما[1]
وطَوانى فى زواياه التى ضيَّعتْ ناسًا ووارتْ أمما
ولكم أزعجنى منتقما ولكم وجَّه نحوى تُهَمًا

وهو يخاطب صاحبه وقد رأى ما عليه من بؤس قائلا : لا تلمنى ولا تتهمنى فإن عقلى كما عهدته لا يأتى ما يتَّهم به ، ولُم الدهر على تقصيره فى حقى ، فقد أخطأ فى ظلمى عمدا ولا أعذره فطالما ظلمنى وطالما نقصنى حقى وطوانى فى زواياه المظلمة التى طالما طوى فيها ناسا وأخفى أمما ، ولكم أزعجنى بما يصب علىَّ من انتقامه الشديد ، ولكم وجَّه إلىّ تهما ظالمة . ويتجه إلى قومه يريد أن يدفعهم إلى تلافى ما حدث لهم منشدا :

مَنْ لقومى ؟ إنهم قد أهملوا ما بنَى آباؤهم فانهدما
غلب اليأسُ عليهم إنهم ضَعُفوا رأيا فزلّوا قدَما
يا بنى قومى أفيقوا إنكم ما خُلقتم لتعيشوا غنما
ولقد يحزننى أنى أرى رأيكم مختلفا منقسما
فأفيقوا - يغفر الله لكم - واطلبوا العليا وجاروا الأمما

وهو يتساءل من ينبه قومى إنهم أهملوا ما شاده آباؤهم فانهدم ، وغلب عليهم اليأس من تحقيق آمالهم ، إذ ضعفوا رأيا فزلت بهم الأقدام ، ويقول يا بنى قومى أفيقوا من غفلتكم فإنكم ما خلقتم لتعيشوا غنما تتحكم فيكم الأمم ، وإنه ليحزننى فرقتكم وانقسامكم شيعا ، فأفيقوا من هذا الهم الثقيل واتحدوا واطلبوا العلياء والمجد ، وجاروا الأمم الناهضة فى حياتها العاملة النشيطة .

٣

شعراء التصوف

كان التصوف شائعا منتشرا فى العالم العربى منذ أن ظهرت طرق التصوف السنى فى القرن السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى ، وأخذت تتكاثر تلك الطرق بعد ذلك ، وكان طبيعيا أن يعم التصوف فى السودان منذ القرن العاشر الهجرى ، إذ كثر فيه بناء الخلايا الخاصة بالصوفية وكثر دعاة التصوف وخاصة دعاة الطريقتين : القادرية التى أسسها ببغداد عبد القادر

(١) هضم : نقص .

الجيلانى المتوفى سنة ٥٦١ هـ/١١٦٥ م والشاذلية لأبى الحسن الشاذلى التونسى المتوفى بمصر سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م ويقال – كما أسلفنا – إن الذى أدخل الطريقة القادرية إلى السودان الشيخ تاج الدين البهارى البغدادى . إذ نزل السودان فى النصف الثانى من القرن العاشر الهجرى ودعا إلى تلك الطريقة وكثر أتباعه ، وشاعت بجانب الطريقة الصوفية القادرية الطريقة الشاذلية ، ويبدو أنها سبقت الطريقة القادرية فى النزول بالسودان عن طريق بعض المغاربة النازلين فيه وطريق برنو وأيضا عن طريق مصر لأنها كانت شائعة بها شيوعا شديدا ، وألفت أسرة المجاذيب لها فرعا مهما فى مدينة الدامر . ويخيل إلى الإنسان أنه لم يكن فى السودان أحد طوال عصر الفونج إلا ينتسب إلى إحدى الطريقتين . وقد أفضنا فى الحديث عن تلك الطريقتين فى صدر عرضنا للمجتمع السودانى . وأيضا عن اتساع النزعة الصوفية فيه ، وقد دعا شعراؤهم دعوة واسعة إلى الزهد والتقشف ورفض متاع الدنيا انتظارًا لمتاع الآخرة ، ويقول الشيخ فرح تكتوك المار ذكره والمتوفى بعصر الفونج كما أسلفنا[1] :

كم دودةٍ فى عميق الأرض فى جُحُرٍ ... يأتى لها رزقُها فى الوقت والحينِ
ألا الزَمِ العلمِ والتَّقْوَى وما نتجتْ ... من الثمـــار تَفُزْ بالخـــرَّد العِـين
مَنْ باع دينًا بدنيا واستعزَّ بها ... كأنما بـــاع فِرْدَوْســًا بسِجِّين[2]
ولقمةٌ من طعـام البُرِّ تُشْبعنى ... وجرعةٌ من قليل المـاء ترويني
وقطعةٌ من قليـل الثـــوب تَسْترنى ... إن متُّ تكْفِنُنى أو عـشتُ تكسـونى

فالله يرزق كل خلقه حتى الدود فى أعماق الأرض فلا تحملْ هما لجلب رزقٍ والزم التقوى وعبادةَ ربك تظفر فى الآخرة بالحور جميلات العيون ، وما أشقى من يبيع متاع الآخرة بمتاع الدنيا إنه يبيع فردوسا بواد من وديان جهنم وما متاع الدنيا ؟ إن لقمة من خبز القمح تشبع الشاعر وترويه جرعة من قليل الماء ، وتكفيه قطعة من قماش تستر جسمه ، إن مات كفنته ، وإن عاش كسته . ومرَّ بنا فى كتاب الأندلس أن للزاهد أبى إسحق الإلبيرى قصيدة ختم أبياتها بلفظ الجلالة . ويبدو أن صوفيا سودانيا رأى أن يحاكيه فى هذا الصنيع ، فنظم مقطوعة ختمها بلفظ الجلالة أنشدها ودّ ضيف الله فى طبقاته من مثل قوله[3] :

اللّهُ لى عُدَّةٌ فى كل نائبةٍ ... أقول فى كل حالٍ حَسْبِىَ اللّهُ
إلى متى أنت فى لهوٍ وفى لعبٍ ... فما مقالُك فيما يعلم الله
إن الذنوب التى قدمتهَا كُتبتْ ... إن كنت ناسيَها لـم ينسها الله

(١) شعراء السودان ص ٢٦١ .
(٢) سجين : واد فى جهنم .
(٣) طبقات ود ضيف الله ص ١٥٨ .

وهو يتخذ الله عدة فى كل نائبة . وكلما نزلت به كارثة قال حسبى الله ، ويخاطب نفسه إلى متى هو فى لعب ولهو منصرفا عن تقوى الله الذى يعلم كل ذنوبه إذ كتبها الملكان الرقيبان عليه ، وكأنه يستحث نفسه على الرجوع إلى تقوى ربه والانصراف عن اللهو واللعب إلى النسك والعبادة . وتكثر عند المتصوفة فى عصر الفونج مثل هذه المعارضات لقصائد النساك ، وقد عارضوا ابن الفارض المصرى فى بعض قصائده الصوفية ، من ذلك معارضة الشيخ الصوفى موسى لتائيته المشهورة قائلا[1] :

سلامٌ على قومٍ إذا ذُكر اسمهم تهتَّكُ أستارٌ إليهم برَجْفةِ
تلألأتِ الأنوارُ من نحو خالقى بوقتِ قيامى أو جلوسى بخلوةِ

وهى لا تلحق تائية ابن الفارض فى روعة الصياغة والمعانى الصوفية ، ولكنها على كل حال تدل على نزعة صوفية قوية عند الشيخ موسى وإن لم يغمسها فى نور الشهود والفناء فى الذات العلية مثل ابن الفارض . واستمر تشطير الأبيات لأئمة الصوفية طويلا ، من ذلك ما أنشده صاحب كتاب الشعراء فى السودان من تشطير على الشامى السودانى لبعض أبيات لابن الفارض ، منها قوله :

(إنْ كان منزلتى فى الحب عندكُمُ) نحــولُ جسمى وآلامى وإيلامى
أو أن يكون جزا روحى التى زهقتْ (ما قد رأيتُ فقد ضَيَّعْتُ أيامى)
(أمنيةٌ ظفرت روحى بها زمنًا) حتى تركتُ مقامى بين أقوامى
كانت بأيـــامِ صَفْوٍ إذ حلتْ فخلَتْ (واليــومَ أحسبها أضْغاثُ أحـلامِ)

وهو يقول إن كانت منزلتى فى الحب الإلهى لا تزيد عن نحول وآلام متصلة ، أو يكون هكذا جزاء روحى التى بلغت الحلقوم فقد ضيعت أيامى . وإنها لأمنية فازت بها روحى زمنا حتى نسيت قومى ، وهو زمن كانت أيامه أيام صفو وهناءة ، أياما حلوة مضت واليوم أحسبها أضغاث أحلام . ويقول الشيخ محمد سعيد العباسى متبتلا لربه[2] :

يا ربِّ أنت حمايتى فتولَّنى يا ربِّ أنت من النَّوائبِ مَفْزعى
جُدْ لى – وزيِّنْ ظاهِرى – بعوارفٍ وبباطنى نــورَ المعــارف أَوْدِعِ
واقبلْ شكايةَ فاقتى وتطلُّبى لنَداك وارحمْ ذِلَّتى وتوجعى
أنا عبدُ سوءٍ أوثقتْه ذنوبُه أنــا لائذٌ بِحِمى الرَّحــاب الأوسعِ
إن لـم تكن لى من ذنــوبٍ أثقلتْ ظَهْرِى فما أقــوى ، وأفقرَ مرتعى[3]

(١) طبقات ود ضيف الله ص ١٥٤ وتاريخ الثقافة العربية فى السودان ص ١٩١ .
(٢) شعراء السودان ص ٣١٠ وراجع كتاب محمد سعيد العباسى للدكتور أحمد عبد الله سامى ص ٥٣ وديوان العباسى .
(٣) مرتعى : معيشتى .

وهو يضرع إلى ربه قائلا أنت حمايتى فاحمنى ، وأنت ملجئى من النوائب فأغثنى وجُدْ لى بإحسان منك أُزيَّن به ظاهرى ، وأودع بدخائلى نور المعارف ، واقْبَلْ شكوى حاجتى لكرمك الفياض ، وارحم ذلى وتوجعى لرأفتك ، إنى عبد سوء من عبادك المذنبين وأنا لائذ بحمى ساحتك الواسعة ، وإن لم تكن لى وملجئى من هذه الذنوب الثقيلة فما أفقر مرتعى ومعيشتى . وعارض الشيخ محمد الطاهر المجذوب يائية ابن الفارض المشهورة بقصيدة استهلها بقوله[1] :

زائرى فى الطيف هل من عودةٍ تَحْيَ منهـا مهجتى بـل أَصْغَرَىّ

والأصغران : القلب واللسان . وللشيخ محمد سعيد العباسى تخميس لبيتين للشبلى الصوفى على هذا النمط :

هوايَ أنت وهـل فى ذاك من حرجِ أنتم ملاذى وأنتم فى الدُّجى سُرُجى

يا سادةً قويتْ فى حبِّكم حُجَجِى

(لا أبرح الباب حتى تُصْلحوا عِوَجِى وتقبلونى على عيبى ونُقْصانى)

قلبـى بكـم يا سَـراةَ الحىِّ فى شَغَفٍ دمعـى بعهـدِ ربـوع الظاعنين وَفِى

بالله عطفـا على صَبٍّ لكـم دَنفِ

(فإن رضيتم فيا عزّى ويا شَرَفِى وإنْ أبيتم فمن أرجو لعصيانى)

والتخميس محكم ، وشطور العباسى الستة متداخلة فى بيتى الشبلى بدقة ، إذ كان بارعا فى صوغ شعره وأبياته .

٤

شعراء المدائح النبوية

تغنى كثيرون من شعراء السودان بمدائح الرسول ﷺ ، مثلهم فى ذلك مثل الشعراء فى جميع بلدان الوطن العربى ، إذ هو المثل الرفيع لكل مسلم فى تقواه وعبادته لربه وورعه . وقد أخذت هذه المدائح تتكاثر بالسودان منذ القرن الثالث عشر الهجرى/التاسع عشر الميلادى حتى لينظم بعض الشعراء دواوين كاملة فى المديح النبوى مثل محمد عثمان الميرغنى وديوانه : « النور البراق فى مدح النبى المصداق » والسيد أحمد بن إدريس وديوانه : « رياض المديح » والشيخ أبى القاسم أحمد هاشم وديوانه : « روض الصفا فى مديح المصطفى » . ونلتقى عند الشيخ الأمين الضرير المتوفى سنة ١٣٠٢ هـ/١٨٨٥ م بمدحة نبوية ورَّى فيها بسور القرآن الكريم

(١) تاريخ الثقافة العربية فى السودان ص ١٩١ .

على غرار مدحة نبوية لابن جابر الأندلسى ، أنشدنا منها قطعة فى ترجمته بكتابنا عن الأندلس ، ويقول الشيخ الأمين الضرير فى فواتح مدحته[1] :

ما للنساء كمثل المصطفى ولدٌ ... إذ منه مائدةُ الأنعـــام والعُقـلا
أعرافُه المسك والأنفال وافرةٌ ... لمن به توبـةٌ كى تُذْهبَ الوجَلا[2]
به ليونسَ أُنْسٌ ثم هودٌ هدى ... ويوسفٌ حسنُه من أجلـــه كملا

والأبيات تذكر بالترتيب سور النساء والمائدة والأنعام فى البيت الأول وسور الأعراف والأنفال والتوبة فى البيت الثانى وسور يونس وهود ويوسف فى البيت الثالث ، واسم السورة يلتحم بمعناه فى البيت ، والأعراف جمع عرف بمعنى المعروف والأنفال العطايا ، وهما اسما السورتين بعد الأنعام ، وتتوالى السور بترتيب المصحف . ويختم القصيدة بالصلاة على الرسول ﷺ . وللشيخ أبى القاسم أحمد هاشم المترجم له فى شعراء الغزل العذرى مدحة نبوية بديعة يقول فيها[3] :

أمحمدٌ ولأنت أكـرمُ مرسـلٍ ... وأحـقُّ من بمديحـــه يُتَقرَّبُ
أمحمدٌ ما أنت إلا رحمـــةٌ ... وبشارةٌ ، لك كلُّ خيرٍ يُنْسَبُ
يا بنَ العوالى الشُّمِّ من مُضَرٍ ويا ... سِرَّ الوجود لك الفِناء الأرحبُ
يا سيدى يا خاتَم الرسل الكرا ... م ومَنْ إليك الملتجا والمهربُ
مدحتْك آياتُ الكتابِ ونَوَّهتْ ... بفضائلٍ عن دَرْك غيرك تُحْجَبُ
كلُّ الكمـال فأنت غايـــةُ حَدِّه ... مـا نـــال ما قد نلتَـــه متقرِّبُ

والشيخ أبو القاسم يخاطب الرسول قائلا إنه أحق مرسل يتقرب المسلم بمديحه إلى ربه ، وقد أرسله رحمة وبشرى لعباده ، وإليه ينسب كل خير ، إنه ابن السادة العظام من مضر ، وسر الوجود جميعه ، وله المجد الأرحب ، إنه خاتم الرسل الكرام والملجأ لكل خائف فزع ، وقد مدحته آيات القرآن بمثل (وإنك لعلى خلق عظيم) ونوهت له بفضائل دون غيره ، إنه عين الكمال وغايته ومنتهاه ، ولم ينل أحد من ربه ما نال من فضله . والمدحة بديعة ولم يترجم له صاحب نفثات اليراع ولم ينشد له صاحب شعراء السودان سوى هذه المدحة مع أن له ديوانا جميعه مدائح نبوية باسم « روض الصفا فى مدح المصطفى » كما أسلفنا . وكان يعاصره

(١) شعراء السودان ص ٢٢ .
(٢) الوجل : الخوف .
(٣) شعراء السودان ص ٣٣ .

الشيخ عمر الأزهرى وأنشد له صاحب الشعراء فى السودان ثلاث مدائح نبوية ، وسنفرد له ترجمة . وللشيخ إبراهيم هاشم مدحتان نبويتان يقول فى إحداهما[1] :

هـــذا محمـــدٌ الذى ملأ البلاد هُدىً وجادْ
وهـــو الموصِّـــل للطريـــــق المستقيـم وللسَّداد
وهـــو المبشِّر والمحـــــذِّر والمحـــرِّض للجهـــاد
وهو الموصِّل للسَّلا مة فى القيامة والمعادْ
والله أعْلَى ذكـــــره وأذاعه فى كل نـــادْ

وهو يقول إن هدى محمد ﷺ ملأ البلاد ومازال يجود ويفيض ، وهو الموصل لطريق السعادة فى الدنيا والآخرة ، طريق الرشد والسداد ، وهو المبشر بنعيم الله والمحذر من عذابه وجحيمه والمحرض للجهاد فى سبيله ، وهو الموصل للأمن والسلامة يوم القيامة وفى الحياة الآخرة ، وقد أعلى الله ذكره ، ونشره فى كل ناد بين الناس أجمعين . ويلقانا الشيخ عبد الله عبد الرحمن ، وسنترجم له عما قليل . ويقول عثمان هاشم فى الاحتفال بليلة الميلاد النبوى سنة ١٣٣٩ هـ/١٩٢١ م منشدا[2] :

بجلالِ ذكـرك تَفْخر الأعـوامُ وبحسنِ يـومك تَزْدهى الأيـــامُ
يا ليلةَ الميلاد حَسْبُكِ مفخرا نـــورٌ عليه من النبىِّ تمامُ
ضاءتْ به الدنيا وأزهَر نورُها بالمسلمـــين وأشـرق الإســـلام
شرفًا بأحمدَ خيرِ مَنْ وطىء الثَّرَى وله على السَّبْع الطِّباق مقامُ
لولاك يا بنَ الأكرمـين لما اهتدتْ تلك الشعـوبُ ولا استقام نظـامُ

وهو يحيى ليلة ميلاد الرسول ﷺ ، ويقول لها إن الأعوام تفخر بذكرك وتتيه بيومك الأيام وحسبك مفخرا وزهوا وعظمة ما رافق الرسول فى مولده من النور العظيم . أضاءت به الدنيا وعظم نورها بالمسلمين وأشرق الإسلام وتبلّج فى الآفاق نوره ، شرفا لا يماثله شرف بالرسول العظيم خير إنسان وطىء الثرى وقد صعد به ربه وأتاح له فى معراجه مقاما فوق السموات السبع ، ولولاه ما اهتدت الشعوب الإسلامية ولا استقام لها ملك ولا حكم ولا نظام . ويبكى فى مدحته الإسلام مقارنا بين ماضيه وحاضره وما أصاب أقوامه وشعوبه من التخاذل . ويعود إلى تحية العام الهجرى فى قصيدة ثانية باكيا الإسلام والمسلمين وما عمَّ بينهم من عداء وأحقاد ، ويهتف[3] :

---

(١) شعراء السودان ص ٥٩ .
(٢) شعراء السودان ص ٢١٧ .
(٣) شعراء السودان ص ٢٢٩ .

غَدتْ ملَّةُ الإسلام تبكى تأسُّفًا كأن لم يكن فوق البسيطة مسلمُ
تنسوح على أيامهـا وشبابهـا فيبكى لها البيتُ العتيقُ وزَمْزَمُ
لقد عمل الأعداءُ كيدًا لسَحْقها فهـا هى بين القـوم نهبٌ مقسَّم
تذكَّرتِ الصِّدِّيقَ إِبَّـانَ مجدهـا فبلَّلها سَحٌّ من الدمـعُ مُسْجم[1]
تنادى بصوتٍ يَقْطع القلبَ حسرةً درائِ أبـا حفصٍ فقد كدتُ أُهْدَمُ

وملة الإسلام تبكى متحسرة ، كأن لم يبق فوق الأرض مسلم ، تنوح على أيامها الماضية وشباب مجدها الغابر،ويبكى لها المسجد الحرام وبئر زمزم ، فقد اجتمع أعداؤها على الكيد لها، وتلك ديارها نهب مقسم بينهم . وتذكرتْ أبا بكر الصديق العظيم فى أوائل مجدها وعزتها وذرفت الدمع مدرارا، وتُعْول بصوت محزون منادية الفاروق عمر بن الخطاب أدركنى قبل أن يفتك بى الأعداء. وللشيخ مدثِّر البوشى المولود سنة١٩٠٣ للميلاد مدحة نبوية بديعة ، استهلها بنقد عنيف لشعبه السودانى ، يريد أن يدفعه إلى العمل والعلم على هدى الشريعة المحمدية،وينشد[2] :

اللَّهُ أكبرُ هذا يـومُ مولدهِ فالكونُ مبتهجٌ من نوره الحسنِ
حُيِّيتِ يا ليلـةَ الميـلاد مشرقةً على الربوع بوجهٍ ساطع الزَّيَنِ
حُيِّيت يا ليلـة الميـلاد جالبةً لِلبشْر مذهبـةً للهمِّ والحـزنِ
حُيِّيتِ يا ليلة الميلاد كم رقصتْ فيكِ النفوسُ فحاكتْ مائسَ الغصُنِ
حييتِ يا ليلة الميلاد إن لنا فخرا بتجديد ذكرى خيرِ مؤتمَنِ
هـو النبىُّ الذى عمَّت فواضلـهُ كلَّ الوجود كَصَوْب العـارض الهَتِن

والشيخ مدثر يكبِّر معظما يوم مولد الرسول الذى عمت الكونَ بهجتُه من نوره الوضاء ، ويحيِّى ليلة ميلاده التى استحالت على الآفاق ليلة مضيئة بوجه مشرق مزدان بالأضواء والأنوار ، وقد جلبت البشر والسرور ومحت الهم والحزن ، ويقول كم رقصت فيها النفوس طربا محاكية الغصون المختالة ، وإن لنا فيها لفخرا عظيما بتمجيد ذكرى خير الرسل ، إنه النبى الذى عمَّت أفضاله كل الوجود كما يعم مطر السحاب الهاطل أطباق الأرض . وللشيخ مدثر همزية اختصر بها السيرة النبوية فى ١٢٣ بيتا[3] .

الشيخ عمر[4] الأزهرى

هو الشيخ عمر بن عبد الله الأزهرى ، من ذرية عقيل بن أبى طالب ، ولد سنة ١٢٧٠ هـ/ ١٨٥٣ م وتوفى سنة ١٣٣٣ هـ/١٩١٥ م رُزق به أبوه الصوفى من أعمال القطارف جنوبى

(١) سح : سيل . مسجم دائم السيلان .
(٢) شعراء السودان ص ٣٣٦ .
(٣) أنشد هذه الهمزية صاحب نفثات اليراع ص ١٧٥ .
(٤) انظر فى ترجمة الشيخ عمر الأزهرى ومدائحه النبوية كتاب الشعراء فى السودان ص ٢٤٩ وراجع نفثات اليراع ص ٩٨ وكتاب الشعر الحديث فى السودان للدكتور الشوش فى حديثه عن المديح النبوى وشعراء الوطنية فى السودان ص ٣١٠ وما بعدها .

نهر عطبرة رافد النيل ، وعنى به أبوه ، فحفظ القرآن الكريم ، وبعد حفظه درس على شيوخ مختلفين علوم الفقه واللغة العربية . وفى سن العشرين رحل إلى القاهرة واختلف إلى حلقات شيوخ الأزهر ينهل منها ما شاء ، حتى ثقف العلوم الدينية وعلوم العربية ثقافة جيدة ، وعاد إلى موطنه وفيه عُنى بتدريس الفقه والنحو وعلوم البلاغة ، وتقلد منصب القضاء فى عهد الدعوة المهدية وأقرَّته دولة الحكم الثنائى فى منصبه. وكان عالما جليلا وشاعرا مجيد ، وأنشد له صاحب الشعراء فى السودان ثلاث مدائح نبوية ، وفى إحداها يقول عن الرسول منوها به ومشيدا :

المنتقى المبعوث من بين الورى ... للخلق طُرًّا إنْسُهُ أوجانُهْ
لولاه ما كان الوجودُ ولم يكن ... مُلْكٌ ولا مَلِكٌ ولا أعوانه
حتى ولم يَكُ آدمٌ كلاًّ ولا ... شيثٌ ولا نوحٌ ولا طوفانه
ونَجَا الخليلُ بجاهه من نار نَمْـ ... ـرودٍ لعمرى إذ جفا خِلاَّنه

وهو يصف الرسول بأنه المختار المبعوث لهداية الخلق جميعا من الإنس والجنّ ، ويستضىء بشعاع ممن نوَّهوا قبله بالحقيقة المحمدية وأن الرسول علة الوجود ، فيقول لولاه ما كان الوجود ولا دول ولا ملوك ولا كان آدم ولا شيث ولا نوح وطوفانه . وبجاهه نجا إبراهيم الخليل من نار نمرود واستحالت بردا وسلاما . ويمضى فى القصيدة قائلا : بجاهه نجا كليم الله موسى من فرعون وهامانه ، وباسمه دعا ذو النون ربه فى ظلمات البحار فاستجاب له ، وبالمثل استجاب لأيوب وكشف عنه ما به من ضُرّ ، فهو سرُّ الوجود الذى لولاه ما خرجت الدنيا من العدم ، وهو مبدأ الأنبياء والرسل ومنتهاهم وكل ما حدث لهم من معجزات فبفضله الأزلى ، ويقول الشيخ عمر فى نفس القصيدة :

جُمِعَتْ خِصالُ المرسَلين له كما ... جَمَع الذى فى كُتْبهم فُرْقانُهْ
كم قد عفا عمَّن أساء وكم هَدى ... من ضلَّ عن طرُق الهدى تِبْيانه
يمشى وبَكْنِسُ دارَه ويَخِيط ثَـوْ ... بًا قد عفا والصفح ذلك شانُهْ
يا من علا فوق الطباق ومن عَلا الـ ... ـرُّسُلَ الكرام هو المكينُ مكانه
يا سيدَ الثَّقلين يا مُجْلى الصَّدَا ... يا عينَ هذا الكونِ بل إنسانهْ

وهو يقول إن كل الخصال الفاضلة للرسل جمعت له كما جمع قرآنه كل ما فى الكتب السماوية قبله . ومن صفاته الكبرى العفو وكم هدى أناسا كانوا ضالين ببيانه الرائع ، وإنه مثال للتواضع كما حكى كتَّاب السيرة وقالوا إنه كان أحيانا يكنس داره ويخيط ثوبه ، وكان دأبه الصفح والعفو والغفران ، ويقول إنه علا فى معراجه فوق السموات السبع وعلا الرسل وسما فوقهم ، إنه سيد الإنس من الجن ، وإنه يجلو الصَّدا وكل غشاوة ، وهو عين الكون

بل إنسانه الذى به يبصر . وهذه المدحة أروع مِدَحِه الثلاث ، وهو فى المدحتين الأخريين يعنى ببيان معجزات الرسول التى ترددها كتب السيرة .

الشيخ عبد[1] الله عبد الرحمن

ولد فى جزيرة توتى المواجهة للخرطوم سنة ١٣٠٩ هـ/١٨٩٢ م لأبيه القاضى عبد الرحمن بن الأمين الضرير شيخ علماء السودان وكان شاعرا مجيدا ومرت بنا مدحة نبوية بديعة له ، وعنى به أبوه ، فوجهه لحفظ القرآن الكريم وأتمه سنة ١٣٢١ هـ / ١٩٠٣ م ولزم أباه فى تنقله قاضيا شرعيا بأبى حمد ودنقلة والقطينة ، وكان أهم أساتذته إذ درس عليه العربية والفقه وعلم التوحيد أو الكلام . والتحق بكلية غوردون سنة ١٣٢٣ هـ / ١٩٠٦ م بقسم المعلمين والقضاة . وتخرج فيه سنة ١٣٢٨ هـ / ١٩١١ م وعُيِّن مدرسا للغة العربية بالمدارس الثانوية فى وزارة المعارف السودانية . وتفتحت ملكته الشعرية مبكرة وما هى إلا سنوات حتى اشتهر ، ومن فرائده نونية فى وصف الطبيعة السودانية استهلها بقوله :

كم للطبيعة فى السودان من فِتَنٍ ... وكم لأطيارها من سِحْرِ ألحانِ

وقد نظمها سنة ١٩٣٤ بعد هذا العصر الذى نؤرخ له ، وهو أحد ثلاثة أفذاذ من الشعراء السودانيين تعاصروا فى النصف الأول من القرن العشرين ، وكانت لهم شهره مدوية فى عالم الشعر السودانى هو ومحمد سعيد العباسى وعبد الله البنا ، ولهم جميعا شعر وطنى واجتماعى كثير ، وكل منهم خليق بدراسة مستقلة . ويقول صاحب كتاب شعراء السودان : « له فى المدائح النبوية الباع الطويل والقدح المعلى » وأنشد له نبوية ألقاها سنة ١٣٤١هـ/ ١٩٢٣م فى حفل المولد النبوى ، وفيها يقول :

نبىٌّ كان للدنيـــا جمـــالا ... وذخـــرا للعديـــم وللغنـــىّ
نبىٌّ قد يُجير على الليـالى ... إذا مـا جِئْنَ بالأمـــر الفَرِىّ[2]
لعمرُك ما النبىُّ – فدتْك نفسى – ... بمنطلـقِ اللســان على البَذِىّ
ولا هَلِعٌ تزعزعــه خطـوبٌ ... ولا مُهــدِى الملامـــة للمسىّ
ولكــن قد عرفنـــاه رءوفـــا ... يـردُّ عوادىَ الدهـــرِ العَتِىّ[3]

فالنبى ﷺ كان جمالا لا يماثله جمال وكنزا ماديا للفقير ومعنويا للغنى ، وكان يجير على الليالى إذا ما جاءت بالخطوب الخطيرة ، وكان عف اللسان حتى مع البذىء المذموم ، ولم

(١) انظر فى ترجمة الشيخ عبد الله عبد الرحمن وشعره نفثات اليراع ص١١٥ وكتاب الشعراء فى السودان ص ١٨٧ وكتاب الشعر الحديث فى السودان للدكتور محمد إبراهيم الشوش ص ٦٤ ومابعدها وفى مواضع مختلفة وكتاب الشعر والشعراء فى السودان لأحمد أبوسعد (طبع دارالمعارف ببيروت) ص٣٣. وكتاب تاريخ الثقافة العربية فى السودان للدكتور عبد المجيد عابدين (انظر الفهرس) وله ديوان منشور من قديم .

(٢) الفرى : المختلق ويريد الخطير .

(٣) عوادى الدهر : نوائبه . العتىّ : الجبار .

يكن جَزِعا تعصف به الخطوب الخطيرة ، وكان رقيق الحسّ حتى لا يلوم المسيء على إساءته ، وكانت الرأفة والرحمة ملءَ فؤاده ، وكان يعرف كيف يرد كوارث الدهر الجبار . ولا يلبث أن يقول فى الرسول الكريم :

وهُوْ أصلُ الوجودِ بلا مِراءِ ... وهُوْ سرُّ الحياة لكل حَيّ
أتى بالملّـة السمحـاءِ يدعـو ... إلى الأخـلاق والشّرْع السَّوِيّ
وأقسمُ مـا سحـابٌ مكفهرٌّ ... كأن بريقـه قسمـاتُ مَيّ[1]
يروِّى الأرض من غَوْرٍ ونَجْدٍ ... بأجـودَ من بَنـان الهاشميّ
وما أسدٌ له بالغـاب زأرٌ ... يُصِمّ الأُذْنَ من فَـرْط الـدويّ
بأشجعَ منـه فى الهيجـاء قَلْبًا ... إذا برقتْ شبـاةُ السَّمْهَرِيّ[2]

والشيخ عبد الله يستلهم فى البيت الأول فكرة الحقيقة المحمدية وأن الرسول ﷺ الأصل الأزلىّ للوجود قبل نشأته وكل حياة لموجود فى الكون مستمدة منه . ويصف الشاعر الدين الحنيف بأنه دين سمح وأن شرعه شرع سوىّ عادل لا إفراط فيه ولا تفريط ، ويقسم أن السحاب المعتم لكثرة أمطاره وبريقه الذى يشبه قسمات وجه « مى » فى ضيائه ، المروِّى للأرض فى وديانها وأنجادها أو مرتفعاتها العالية ليس هذا السحاب أكرم من بنان الرسول الفائضة بالجود ، وليس الأسد الغضنفر الذى يزأر فى غابه زئيرا يصمُّ دويه الأذن بأشجع من الرسول إذا حميت الحرب . وللشاعر مدحة نبوية دالية أنشد منها صاحب كتاب الشعراء فى السودان مقدمتها الغزلية وقوله فى وصف معجزة القرآن الخالدة :

مَثانى حارت الشعراء فيها ... وردَّتْ كلَّ جبَّارٍ عنيدِ
متى ما يَتْلها أحـدٌ بنـادٍ ... يقـول المُنْتَدَى هل من مزيدِ

والمثانى يريد بها آيات القرآن الكريم لأنها تعاد فى ألسنة حفاظها . ويقول إن الشعراء حارت فى روعتها البلاغية وبُهت كل جبار معاند للرسول ورسالته ، وحين يتلوها أحد بنادٍ يشدُّ إليها انتباه الناس ويطلبون المزيد منها لبلاغتها الرفيعة المعجزة .

(١) المكفهر : الأسود المعتم .
(٢) شباة السمهرى : حد السيف .